ابراهيم عبد المجيد

الصياد واليمام

رواية

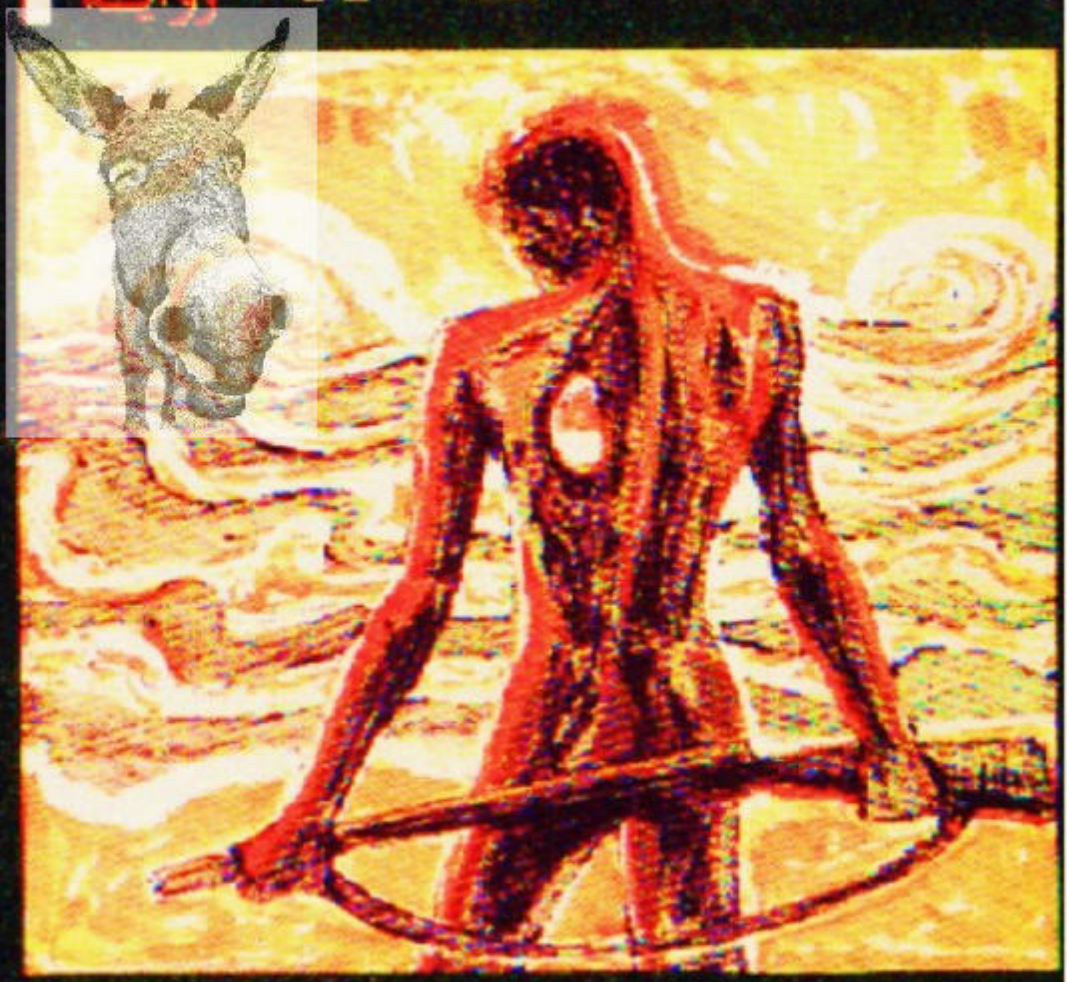

دار المستقبل العربي

○ ○ « الاسكندرية » مدينة تقع على الساحل الشمالي لمصر . بناها الاسكندر المقدوني وأعطاها اسمه . وهي موقعها الجميل ، مصيف كبير »

لم يفكر أن بالاسكندرية أرصفة وقطارات . وفي أيام دروسه التالية ، كثيراً ما كان يضحك حين يتذكر كيف سأل تلميذ المدرس « أين كان يصطاف الناس لو لم يبن الاسكندر الاسكندرية ؟ »

لم يكن قد رأى هذه المدينة ، ولا كان يحلم أن يراها . فقط يتكرر اسمها في كتابي التاريخ والجغرافيا . ووحدة ، من بين الأسماء العديدة للمدن والأقطار ، كان له وقع خاص على سمعه ، وتأثير غير مفهوم على عينيه . مرة يقول أن جرسه جميل ، وحروفه الكثيرة ملفتة للنظر . ومرة أنها من بين كثير من المدن تنطق مسبوقة بالألف واللام . هكذا هي دائما في الكتب والاذاعات . فهي مدينة تتطلف بالتأكيد عن غيرها . وشيء يقال كأنه معروف من أول الزمان . وهي ، وإن شابهها بعض المدن أو الدول في ارتباط اسمها بالألف واللام ، فرسم

الاسكندرية أو جرسها ، منفرد كشجرة وحيدة في صحراء واسعة من رمال أو صخور . لكنه وقد سمع الجميع ينطقونها « اسكندرية » في حديثهم اليومي ، بعد أن دخلها من بابها الواسع الذي يدخله الغرباء كل يوم ، فكر كيف ينطقون اسمها بإهمال . أي عداوة تقوم بين الناس والمدينة ، أو أي محبة تلك التي تنتهي بعدم اكتراث ؟ .

لم يكن مهتما بأن يجد اسم المدينة في بقية الكتب ، فقد كان يذاكر جيداً ، لكنه رسب ثلاث مرات متوالية فقال أبوه كأنه يشاغب .

ـــ لا أستطيع أن أعيد لينك مرة أخرى . عشرة جنيهات لا أملكها مرتين في عامين ، اعمل معي .

رأى أباه ينام فوق الحلم بأن يراه ناجحاً في الإعدادية فيترك كفر الزيات ، فناجحاً في الثانوية فيغادر طنطا ، ثم ناجحاً في الجامعة فيعود من القاهرة شيئا كبيراً . أما هو فلم يكن يحلم . كان يشعر دائما أنه وحيد يمشي في العراء . وأحس أنه عذل الرجل الذي كان سيدبر النقود ـــ لو نجح ـــ من دمه . أوشك أن يقبل يديه عدة حين أعلنه بالعمل الذي يكرهه ؟

○ ○ ○

ـــ سننتقل إلى الاسكندرية .

قال أبوه مهموماً في مساء اليوم التالي فرأى أمه تصمت طويلاً . سمع المطر الثقيل البطيء يسقط فوق السطح ، وأطال أبوه صلاة العشاء .

ـــ هناك سكن لنا ؟

قالت الأم وما فرغ الأب من صلاته . سلّم وقال في اقتضاب .
ـــ سكن المصلحة .

كانت ثياب أبيه في تلك الليلة أكثر [illegible] بها مازوت كثير . وكذلك كانت يداه التي لم يغسلهما جيداً ، والتي كثيراً ما قلبهما أمامه داعيا أياه أن يجتهد ليدرس حتى لا [illegible] ، فلا داعي له كي يخلع القضبان القديمة ويركب الجديدة [illegible] الكلمات الخشبية والحديدية الثقيلة ويعفر أرضاً بهية ، أو يخرج في قلب ليل الشتاء لإصلاح ما يحدثه من الحوادث الطارئة في وقت تؤجب فيه نوم الملائكة و[illegible] مثل أبيه يكره ذلك . يكره أكثر « سكن المصلحة » الذي يعيش [illegible] نهو بعيد عن القرية . عن المدرسة . عن المدينة . عن كل [illegible] يؤنس الوحشة يخشاها الخوف بالليل وبين بعيد مخيف ! . تتبع فيها قسى النهار [illegible] الدهر ! وفي كل الأحوال يبدو « السكن » شيئا سقط من قطار [illegible] عليه أحد .

أعادت أمه السؤال كأنها لم تسمع . أعاد أبوه الاجابة كأنه لم يقل . قال المدرس وقالت الكتب أن الاسكندرية مدينة جميلة . لابد اذن أن سكن المصلحة بها مختلف . سيكون بعيداً عن القطارات العابرة فلن يخرج عليهم أحد . لن تثير عجلات القطار غبارا تعلو فوقهم . لن يخرج الأطفال الحفاة ليقذفوا القطارات بالحجارة ، سيكون الأطفال مثلما كان يتركون من كثرة القطارات وإختلاف وجوه ركابها ، أن الدنيا واسعة ، وربما لا نهاية لها ، بل أكبر من الكرة الأرضية ولا تدور في فراغ مثلها !!

لم يستطع أن يعلن لأبيه أن الاسكندرية لن تكون قاسية . إنه يحبه . حين دخل مدرسة القرية ، التي تبعد ثلاثة أميال يمشيها مرتين كل يوم ، عرف أن

أباه عظيم لأنه الذي ركب وفرد القضبان الطويلة ، التي يمشي بينها وفوقها كل هذه المسافة . حين التحق بالمدرسة الاعدادية رأى المركز . صارت المسافة خمسة أميال . صار يحب أباه أكثر فهو مسكين ليعمل كل هذا العمل ، ولا يحب أن تترك أمه الدجاج يمرح في الحجرة فيقلق نومه ، خاصة وأنه كثيراً ما تصعد دجاجة الى صدر أبيه وتنقر عينه فينهض ، ولا يستطيع النوم مرة ثانية . وحين رأى المدينة لأول مرة ، وكانت مدينة طنطا ، خلال رحلة مدرسية ، ركب القطار وزار السيد البدوي . صلى مع زملائه وعاد يفكر ، أن رجالا مثل أبيه لابد تصاب العين . لكنه أيضاً فكر لماذا حين يذكرون « القرية » في كتب المدرسة ، يقرنون بعدها « المدينة » ولا يأتي ذكر « المركز » ؟ . لم يكن قد رأى في طنطا مصانع ولا مداخن مثل التي في كفر الزيات . تساءل كثيراً حتى أدمن التساؤل . صار يحدث به نفسه بصوت مسموع فجأة المدرس .

ـ بماذا تتحدث أثناء الدرس ؟

ارتبك . تلعثم ثم انطلق يسأل فقال المدرس دون تردد كأنما انتظر السؤال .

ـ دائما يا ولدي لا قيمة للأشياء النصف-نصف .

ما كاد يحاول أن يفهم حتى رأى العرق ينفر فوق جبين المدرس الذي جعل يراجع قليلا قليلا حتى جلس الى مكتبه شبه منهار ثم أشعل سيجارة بيد مرتعشة ، وأخذ نفساً عميقاً وطأطأ رأسه ، ولما زفر سمع صوته ، وخرج الدخان قوياً متماسكاً اصطدم بالمكتب ، فبعثر في شكل دائرة واسعة . ظل هو واقفا لا يستطيع الجلوس . أحس أن الفصل صار فارغا ولم يعد به غيره والمدرس الذي وضع السيجارة بين شفتيه ، ثم أحاط رأسه بكفيه ، واستغرق في النظر الى مكتبه قليلا ، وسرعان ماخرج معلنا أنه لا درس اليوم .

مضينا رأى أباه ينام . بات هو يفكر في القسوة والجمال ! . لن يفهم أبوه ماتقوله الكتب عن الاسكندرية . عند الفجر تعب . ما كاد ينام حتى شق المطر

الذي توحد بالليل صوت صراخ كهفي .

○ ○ ــ عدني معك أصطاد ...

جذبت الطفل بعيداً . أحضرت بلوفر .

ــ أرتديه تحت الجاكت .

ارتداه لي تحفز . ناولته الجاكت الكاكي المبطن . ارتداه لي تحفز أيضا .

ــ أنت متوتر .

تناول البندقية الخفيفة بطريقة تؤكد أنه سيقتل أحداً .

ــ ألا تقلع عن صيد الجام ؟ .

نظر اليا بحدة ودهشة . أغمضت عينيا .

ــ أما آن لك أن تكفّ !؟

ــ خمسة عشر عاماً تصطاد الجام !؟

ــ أنك تأكلين مما أصطاد ..

لم يفهم ، ربما لأكثر من ألف مرة ، كيف تنظر اليه . وكما يحدث كل يوم ، أرادت أن تقول شيئا فخرج شيء آخر .

ــ لكنك مريض .

واقتربت منه . سحل عنفيفا ثم بقوة . ترك البندقية والتفت يبحث بعيداً عنها . ناولته كوب ماء

ــ اشرب .

أشاح بذراعه . وضعت الكوب فوق كومبدنو . لم تستطع أن تمنع الدمعتين . استدار . احكم الجاكت . على ضلاته حول كتفه . أمسك بالبندقية من جديد . غادر الحجرة بخطوات ثابتة مثل إله .

ــ عدني معك أصطاد .

سمع الصوت وهو بعبر الصالة . سمع الطفل يبكي فعرف أنها تنهره . لحقت به عند الباب

ـــ متى ستعود ؟

أول مرة تسأله ذلك .

ـــ اليوم طبعاً

قالها بفتور . لكنه استدار . إنه إنسان طيب يتأمل عينيها الدامعتين كل يوم .

ـــ خمس سنوات ولا صيد ومازلت تخرج . اليوم برد شديد ؟ .

ـــ لاتخشى شيئاً .

ربت على كتفها . استدار ثانية . فتح الباب . أغلقه لأول مرة بنفسه . قال بعد أن غادر البيت « الحمقاء تقول أني لا أصطاد » . فكر أن الحماقة كثيراً ماتصدر عن قلب وديع . أحس أنه يمكن أن يقترب منها . أن يعود بهاء الأيام الأول . آه لو يفهم ماذا باعد بينهما . بسرعة وجد نفسه قد وصل إلى منطقة الصيد . لاحظ أنه لم مر في الطريق أحداً . لم يقابله إلا وجه الريح .

حين تتشابه الأيام في زمن ، لايدركه الناس . وحين يدركون يعرفون كم هو قبيح .

صورته لم تتغير كثيراً . اليوم والأمس . الشتاء والصيف . هذا العام والماضي . يداه وعيناه . بندقيته وعبات الرش الدقيقة البيضاء . الخلاة الكاكي . السروال الكاكي . الجاكت الكاكي . الحذاء الأسود الثقيل ذو الرقبة فوق السروال . الأنف الرفيع عالي العظمة . العينان الغائرتان والهالة السوداء حول كليهما . نظراته الفاحصة للسقف المغطى لنصف الرصيف . البناء المرتفع عن الأرض بين القضبان . العريض عشرين مترا . الطويل الف متر . بلاطه أسود مربع

واسع . الفجوات فتوات بين البلاط تستقر فيها حبات القمح ، الأذرة ، الشعير ، الفول . العمال الصغايدة حمالون . دائما حمالون . سقف الرصيف عال . رمادي قاتم . بني متآكل . مائل إلى الجانبين . الواح الصاج التي يتكون منها كبيرة ومتعرجة . ثقوب كثيرة تتخللها . في الصيف تتفذ منها الأشعة فتفرش الرصيف ببقع شوهاء من الضوء . في الشتاء فراق ، الرصيف يكاد يدخل جوف الأرض . الشمس تستكن في جوف السماء . تعطي الأرض ظهرها ! . العوارض الحديدية المنتشرة تحت السقف تحمله ، تستند على الأعمدة الضخمة على الجانبين . الأعشاش الصغيرة فوق الأعمدة كثيرة . تحت الألواح وبين العوارض أكثر . لكنها أعشاش عصافير ! على جانبي الرصيف عربات السكة الحديد المحملة والفارغة . المسطحة ينقلون فوقها الدبابات والمدافع وعربات الجنود . المغلقة ينقلون بها الغلال . النصف مغلقة ينقلون عليها اجولة البصل والثوم والبطاطس وحزم القصب . أبواب مغلقة وأبواب مفتوحة . الظلام داخل العربات الفارغة والنور حولها . صوت وقع القدم داخل العربة عريض رنان . القدم مرعشة . صوت استخدام قطرات البول بأرض العربة الحديدية يرتاح اليه . الآن لاتشعر برغبة في التبول . الوقت مايزال مبكراً . لكن برد اليوم مختلف رغم أن الشتاء الطويل يأتي كل عام . إنه يعرف ذلك ولا يستغرب له . من سبق أن استغرب للسودان السنين ؟. لكن اليوم لا أحد يقابله . لاعمل . الرصيف خال . الأرصفة الأخرى على الجانبين تبدو كذلك . العصافير القليلة تطير وهو لا يصطاد العصافير . لابد أن يجد الحمام . الوقت لايزال مبكراً . يسمع خشخشة أوراق مهملة تطوحها الرياح فوق أرض الرصيف . لاينزل عينيه اللتين يمسح بهما السقف . أكثر من عشر سنوات يقتل الحمام . أكثر من عشر سنوات يرفع عينيه . خمس سنوات مؤامرة . لكن الحمام لن يستطيع أن يمضي فيها إلى الأبد . شيء ما في أعماقه يهتف بذلك . اليوم صيد وفير . اليوم بداية أو نهاية . ربما بعده يحطم بندقيته . يعتزل . يلقي بحبات الرش الى المرحاض .

يسمع عواء الريح رغم أن الفضاء متسع ، والأرصفة مفتوحة الجوانب . يرى عربات السكة الحديد الفارغة والمحملة على جانبي الرصيف كطابورى حزن . من بينها يرى عربات أخرى على الأرصفة المجاورة . لاتزال لايرى أحداً . ربما حين غمر النور المدينة تعلق الناس بخيوطه الواهنة وصعدوا جميعاً الى السماء وهو بعد نائم مع زوجته . علمته العربات الصمت . علمه شتاء الاسكندرية الخشوع . كيف يكون الفرح في شتاء دائم ؟! .

○ ○ في الأيام الباردة كان يفتح صدره للهواء . يستقل الأوتوبيس من « القباري » إلى « محطة الرمل » . يبدأ سيراً سريعاً على الكورنيش . وحين يخلو الطريق يجري . الهواء يكاد يطيح الى الرصيف المقابل ، وهو يخب متشبثا كفرس امتلك زمام السهول الواسعة . ينظر الى البحر الفاتح . يسمع صخب الموج فيسرع أكثر . يرتطم الموج بالصخور السوداء الضخمة الموازية لسور الكورنيش ويتجاوزها فيطوله أو ينسكب فوقه ، فيتابه خوف الطفل الصغير تلقى أمه عليه الماء البارد لأول مرة . يضحك لأنه لا يجد أحداً يتعلق بكتفيه ! . لا يتنقل الى الطوار الآخر إلا بعد أن يصل الى « سيدى جابر » . يعود أقل سرعة . غالباً ما يتهادى متسكعا . كثيراً ما يمر بيده على جدران المنازل الرطبة فيسقط بعض قشور من دهانها . أنفاسه تصير منتظمة . يرى المقاهي التي ترصع مقاعدها الطوار بالصفوف مغلقة . يمر بمبارات كثيرة وملاه فيتسلل اليه صوت موسيقى مختنقة . يرى زحاماً أمام مسارح الأفراح . لا ينقطع عن النظر الى الأزقة العديدة التي تفتح أفواهها في بلاهة على شارع الكورنيش وتمتد الى الجنوب مخترقة شارعى نانيس وطيبة . يلمح أحيانا فتاة مسرعة . أمرأة تتحدث الى شاب وتحاول أن تضم معطفها الذي يطيح الهواء . رأى مرة أربعة شبان مبعثري الشعر يرتدون سراويل ضيقة ، يحيطون بامرأة مغمية بين أرجلهم ، عارية تضم ساقيها الى صدرها وتلف ذراعيها حولهما وترتجف وتضغط أسنانها تكاد تأكلها . كان المكان حولهم خرابة

تفرقت فوقها الحجارة وأكوام القمامة . ماكاد يقترب منهم حتى ألتفت اليه الشبان الأربعة بلا مبالاة تشي باستغراب . أراد أن يقول شيئاً لكن صوتهم صارت شرسة . سمع صوت المرأة من بين سيقانهم مشروخا باكيا . قالت « امشي يابن الكلب » . وبدا أنه هو سبب محنتها . لم يفهم شيئاً فانصرف مكسلا سيو . مرة أخرى تأخر في العودة حتى كاد الليل ينتصف . كان قد جلس كثيراً على الشاطىء البارد . لم يكن في الجورج ، ولم يكن الموج هائجاً . تنشق رائحة البرد وانبهج . فكر في السمكة التي في بطنها خاتم سليمان . من يصطادها وكيف ستكون حياته ؟. وفي عودته لم يفكر في شيء . وصل دون أن يدري الى كاسب شيزار . بالقرب من كانيز اللؤلؤة الزرقاء شاهد امرأة تقف فوق الطوار المقابل وتمسك بيدها عمود النور وتضحك بصوت لا تسمعه الشقق التي يسير نحوها والمغلقة فصل الشتاء . كانت عارية أيضاً . بدت تحت الضوء الأصفر لامعة وشاحبة . جعلت فجأة تصرخ بكلمات بذيئة وتختلط صوتها بصوت الموسيقى المنبعثة من الملهى الذي يجلس أمام بابه رجل سمين جدا . فكر أن يعبر الشارع اليها . لكن البحر المظلم خلفها بدا له وحشا قديماً يتأهب وهو يسمع صوت موجه الهادىء الوقور !. يخاف أم يشفق ؟. لم يعرف . ظلت تلوي حول العمود وهو ينظر من الطوار الآخر . تقدم . فتحت ذراعيها على اتساعهما وفاجأته .

ـ تعال يابن القحبة !. أخذوا مني وتركوني . وأنت ماذا ستأخذ ؟

وشخرت . كانت من الطوار الآخر تبدو جميلة وإن كانت منكوبة لطمت أحزانه . حين أقترب رأى أن أسنانها ساقطة ، وشعرها أبيض أغلبه ، وثديها طويلان ، وذراعيها كعروق جريد . تركها وعاد آخذاً طريقه يفكر لماذا يكون شتاء الاسكندرية قاسياً ؟. ويلاحقه صوت ضحكات الرجل السمين المبتسمة كأنما هي قادمة من تحت البحر ، فيشعر أنه أبله وبالبلاهة تنتظم الكون .

○ ○ ○

كان حين يصل الى محطة الرمل ينظر الى تمثال سعد زغلول . يعجب من شاربه !. يترك ساحة التمثال الى موقف الأتوبيسات خلف الموقف يرى بعض الناسين وقد تدثروا بقطع عريضة من الكرتون وكميات من القش أو الحشيش . وكان كثيراً ما يتساءل كيف لا تطير ؟. ومن حول الجميع كانت تصعد رائحة البول والبراز الكثيفة . وتحت المظلة لا يجد إلا قليلين يقفون متباعدين متوحدين مع اليوم .

كان يتروى في وكن . يختار لنفسه مكاناً بعيداً أيضاً ويتنظر . ولا يدرى هل لأن الانسان حيوان مجنون لايعشي على طريق الا وغيرها ، أم لأنه بقدر ما يستسلم للملل يرغب في كسر نمط الحياة العادي ، أم لأسباب أخرى ، كان وهو تحت المظلة ، يراقب الزقاق القصير المجاور لمنشأة المطارف والمؤدي الى شارع سعد زغلول . الزقاق بواجهة من بعيد . يتتابع هو العدد القليل من المارة وهم يدخنون داخله أو منه . البعض يحمل شمسية . البعض يقفز قفزات واسعة فوق المياه المنسابة بجوار الرصيف . وكثيراً ما أتت حافلته ولم ينطن . المندفعون الى شارع سعد زغلول ينتصبهم ظلام أو فم وحش واسع والقادمون لا يأتون الى المظلة . لايدخلون شارع الغرفة التجارية . لا يتجهون الى موقف الترام القريب . لا يصعدون الى السماء . يدخلون جميعاً الشارع الضيق المجاور للغرفة التجارية على يسار الزقاق . تكرر ذلك في كل ليلة .

أوشك شتاء أن ينصرم فغادر المظلة متجها الى هذا الشارع . لم يجد به غير بعض عربات يد مغطاه بالشمع الأبيض ومربوطة بحبال ولا يظهر ما تحمله . فيما بعد وفي وقت مبكر عن ذلك رأى فوق العربات أقفاصا أخر وأجهزة كهربائية صغيرة .

لم يجد في الشارع أحداً ممن دخلوه وهو تحت المظلة . وقف قليلاً ثم بأت

أحد من شارع سعد وغلول ! لم يفكر في شيء مخيف !. فكر أن الدنيا هادئة كثيراً ، وحين فتح باب خشبي صغير وخرج منه عجوز جعل يمشي مرتكنا على جدران المنازل ، لمح خلف الباب مقاعد ورجال وسحب دخان فدخل .

منذ تلك الليلة صار هذا البار قرار طقسه الشتوي على الكورنيش . وسرعان ماأقلع عن هذا الطقس . صار يخرج من منزله قاصداً البار . لم يندهش حين دخل أول مرة ، ولم يجد أحداً يبدو عليه أنه قادم قبله مباشرة . لم يفكر في أين يذهب الناس الذين يدخلون الشارع قادمين من الزقاق القصير . لاحظ أنه بعد دخوله لم يدخل البار أحد . لاحظ ذلك فيما بعد وحتى اليوم . كان الجالسون متحلقين حول الزجاجات الفاتحة وأطباق الترمس والفول والجبن وقطع الخبز . وتحت سحائب دخان السجائر الأبيض والأزرق التي لا تلتصق بالسقف الملون ، ولا ترتاح على المناضد ، كان يسمع ثرثرة غير مفهومة . وجد نفسه يقف مرتبكاً ، فاتجه الى الجزء الداخلي من البار وجلس على منضدة بعيدة . أتاه الجرسون فصار أكثر ارتباكاً .

ـ بيرة .

قال بسرعة كقفزة الأرنب . لكن الجرسون الأرنب الحق حتى لايسمعه أحد .

ـ أحضر لك كأس أيبان يدفئك .

كان بالفعل يتفق . لم يفهم أن الجرسون أراد أن يعلمه أن الخمور أنواع ، هز رأسه موافقا . جرع كأس الأيبان بسرعة كما يشاهد في السينما حين يكون البطل مقدماً على جريمة . خرج بعد أن دفع الحساب الذي وجده قليلاً . لقد شرب خمسة كئوس . صار دافئاً حقاً حتى أن الأمطار انقطعت . بلعت

بالدوعات المياه الثقيلة . صارت الشوارع تبرق تحت الأضواء الشاحبة . ازدادت الناس وصارت تمشي في انتظام وتضحك وتدوى ضحكاتها في الفضاء الرحب وأستدار سعد وتقلل فوق قاعدة التمثال ، وأعطى ظهره للبحر ، وألقى طارداً جسمه وشاربه وذراعيه فوق المدينة وابتسم ، فتعجب كيف يقولون أن السكر « بهدلة » !. وفي الأتوبيس شغله سقوط قطرات من المياه من أسفل السقف ، فصار جانبها قطرة قطرة منذ أن تظهر وتتأثر وتكبر حتى تنفجر وتسقط على أرض العربة التي بين صفي المقاعد . أدرك فجأة أن المرارة التي كان يشعر بها في حلقه ، كانت بسبب عدم تناوله شيئا من المرة . قرر أن لاينسى ذلك فيما بعد ..

○ ○ في منتصف المسافة المخططة من الرصيف توقف . منذ بدأ الصيد في هذه المنطقة ، كان بعد أن يقطع الرصيف كله ، يعود في الاتجاه المعاكس على الرصيف المجاور . يصل الى نقطة البداية مرة أخرى حيث يتصل الرصيفان عبر مربع متسع من الأرض الخالية . في وسط هذا المربع يجلس عند كشك الشاى . تقدم له « قمر » السمراء ، الشاى الذي يحبه . يكون قد أصطاد بعضاً من الحمام . كثيراً ما اشترت منه حمامة أو اثنين . واليوم يشعر بحاجة شديدة لشرب الشاى وهو بعد لم ينته من الرصيف . قال لابد أن الوقت يمر سريعاً . إنه يفحص السقف جيداً . يدرك أن المسافة التي قطعها صغيرة . يشاهد العصافير القليلة ولا يرى الحمام . لاتكف الريح عن الصخب . يتعجب من نفسه كيف يسير حالما رافعا البندقية وكأنه سيجد الحمام على غرة . أو ربما في كل وقت !. كيف أمضى السنين الطويلة رافعاً عينيه وبندقيته مستعداً للتصويب في أي لحظة . ؟ أي يقين بالفوز ؟ ربما احساس بأن الفرصة لاتتكرر . يخفض البندقية ويمشي مهلا . صوت الأوراق التي تدحرجها الريح لايبتعد عنه . صوت اهتزاز

الواح القصاع المهترئة بالسقف . هذه الأرصفة قديمة جداً . الرصيف الذي يمشي فوقه الآن لاشك أقدمها . أنهم يسمونه رصيف « الباشا » . وهو الوحيد الذي يتسمى باسم الى شخص لعله أول من أقام الأرصفة . ان أحداً لايعرف من هو . لكن لابد أنه « باشا » فوق كل « الباشوات » . ربما يكون الخديوي إسماعيل نفسه الذي دخلت السكة الحديد في عهده . لكن هذا لا يعنيه كثيرا . أنه يقف بغتة . تماماً كمن تذكر شيئاً اجتهد في تذكره ولم يفلح ، وحين بدا أنه نسيه ، قفز إلى ذهنه في وقت لم يستعد له إنه لم ير كشك الشاي ولا « الفل » السمراء صاحبته حين بدأ جولته منذ قليل . لم يمر بهما رغم أنهما في بداية الرصيف . وهو لايراهما الآن حقاً . الرصيف الممتد أمامه متسعاً خالياً ، يلتحم عند بدايته بالأرض المتسعة الخالية الآن من كل شيء . بالأمس كانا موجودين . المرأة السمراء التي بدت توقفت عند سن الأربعين منذ خمسة عشر عاماً قالت له أمس فقط « لماذا تنظر الي » بعد خمس عشرة سنة أدركت أنه ينظر اليها لو أحست بنظرته . وبعد هذه السنين الطويلة أدرك أنه لايفهم معنى نظراته . ضحك . قالت .

ـ أحبك ياصياد الحمام . هل تعرف ؟

ضحك أكثر . قالت .

ـ الست متزوجاً ؟

استمر يضحك . قالت .

ـ انني جادة . آن الأوان أن تفسر لي نظراتك .

لم يستطع . قالت .

ـ كنت أنا أيضاً أنظر اليك لكنك لا ترى .

أحمر وجهه . كان بالفعل لايرى .

قالت .

ـ أنت لاترى إلا ماتريد . الحمام .

ووجدها جادة . تحرك في وجدانه قاع جبل . ماذا يقول . كيف يفسر نظراته التي لا تفهمها . يذكر فقط أول مرة رآها وفكر أن المنطقة واسعة . والكشك صغير . رواده عمال وجنود يتغزلون . و « قمر » السمراء تقف وسط اليد تبدو لا تعرف من الدنيا إلا هذا المكان . لم يفكر أبعد من هذا . وظل ينظر اليها . سمراء ذات عينين عسليتين ، لم يعرف على طول السنين لها زوجاً أو ولداً . تعد الشاى بنفسها وتقدمه لزبائنها وتجمع النقود تضعها فوق صدرها دون أن تنظر اليها . وصدرها المرتفع في وجهه لا يثير فيه رغبة . لكنه يود لو نام فوقه . لو ارتاح . آه . الراحة على صدر امرأة خصبة . لكن كيف وهي بلا أصل أو فروع . الحنان الذى ضاع . القسوة المطلقة فوق رأسه ، تلهبه بسوطها الناري .

○ ○ ○

بعد الصراخ الكهفي جاء عمه . لقد مات أبوه وولولت أمه . عفرت وجهها بالتراب . حملت الطين فوق رأسها . لطخت به ثيابها ، ووقفت أمام الباب . قالوا جُنّت ، وأنها تمضى في رحلة مجهولة . رأى عمه يصنع الشاى مثل ابيه . يشربه مثله . وكذلك يدخن السجائر ويلفها . وسمعه كثيراً يقول لأمه « ليس لكما غير بيتي » .

ـــ اتذكرين أول مرة قابلتك فيها ؟

تمكث . يعلو وجهها وجوم . يستطرد أبوه .

ـــ لقد ظننتك جنية .

تعلو وجهها صفرة . يرى كأن دخاناً أبيض شفيفاً يخرج من بين شفتيها . يربت أبوه على ظهرها . يضم رأسها الى صدره . يتمتم ببعض أدعية وآيات . يقبل رأس الأم .

ـــ أنصرف بسلام !

يخاطب بوداعة شيئاً مجهولاً . وسرعان ما يعود الدم الى وجه الأم . تبقى ثقيلة وهي النحيلة . تنشغل في شيء من أمور البيت تفعل ذلك شاردة العينين . بعد قليل تعود خفيفة الحركة .

ـ أنصرف والحمد لله !؟

يقول الأب . تقول « انصرف والحمد لله » . يظل هو لا يفهم . وحين فهم لم يعلق . لكنها بعد أن اختفت تساءل وهو يبكي : « هل يمكن أن يتزوج انسي من جني ؟ » . « وهل حقاً حين رأى أبوه أمه لأول مرة كانت جالسة على حافة ترعة في منتصف الليل عارية ورجلاها في الماء ؟ » . لو كان هذا فأي عذاب عرفته أمه ولا يذاع . والأب الطيب يعتقد أنها جنية خرجت له من الماء .

وفي أقصى الصعيد حيث اخذهما عمه قال .

ـ نذهب الى أسوان .

لم ترد . كانت الغشية تأخذها كثيراً .

ـ هناك مشروع السد والعمل كثير .

لم ترد . لاحظ كثيراً ضيق عمه الذي يقطع الأحجار من الجبل . وكانت أمه تنظر اليه كشيء تراه لأول مرة ، أو لن تراه الى الأبد ، فعرف انها لا تريده أن يتركها لكن الرحيل ظل يراوده .

صار عمه كثير الشجار مع زوجته . يضرب أطفاله بقسوة . ثم طرد الزوجة والأطفال ، وقال له أن يصحبهم الى أهل زوجه في قرية أبيس بأقصى الشمال ، فأذعن . لكنه اركبهم القطار وعاد من فوره ، لأنه كان قد رأى أمه تنظر الى عمه نظرة طالت أكثر مما ينبغي . فاجأه عمه .

ـ اختر لك غرفة ونم بها . لقد صرت رجلا .

حبقها الضراط ، وفي المقاعي الرخيصة السوداء ، حيث تختزل الرجولة في ضربات الكف حامية فوق المناضد ، بعد هزائم وانتصارات في الدومينو والورق ينسى أبناء الشمال الاسكندرية . يعطونها ظهورهم ويفتحون عيونهم على مدن جديدة . والاسكندرية الصغيرة الطويلة ، تمتد كامرأة نائمة عشوقة لبنة القوام ، لها عجيزة مترهلة كثيفة الشعر والنمل . تعطي الاسكندرية أبناء الجنوب جنوبها حيث العفن في الشوارع المترية الضيقة الموحلة والبيوت المكومة فوق بعضها . ويحل أبناء الشمال بعد أن يمصون لبن الضرع القوي ناصع الحمرة والبياض . تظل عجيزة الاسكندرية مسك الختام لابناء الجنوب . ليس القادم فوق السفينة كالقادم فوق أظلافه . لانه معلقة فوق المدينة .

فتحت له الاسكندرية الداخة جناحيها . ضمت عليه ريشها . لكن بعد ان يعبه في أقفر أحيائها .

كان بحاجة الى أن يشرب من هواء عذب . يمشي تحت شمس هادئة . يخرج الشرك من لحمه . يعصر قلبه بماء زهر الريحان . يجلو عينيه بضوء قمر . ولو كان يستطيع العيش تحت ماء البحر لفعل . فالأضواء التي تنسكب من المصابيح البيضاء فوق الموج الأسود بالليل . وتنعكس بهية كخيوط الذهب ، لابد تجعل الحياة تحت الماء مليئة بالمرح . والهواء النقي القادم من البحر الذي يلطف غلظة القيظ ، لابد أنفاس قوم طيبين . وأسفل الماء لن يبحث عن أمه . سيدلونه عليها إن كانت هناك . أو يعيدونه إلى الشاطىء ويقولون كيف يجدها بسلام . لم يكن سهلاً أن ينسى ، ولكن كان عليه أن يفعل . وقد أمر السنون فأسى الجراح كما يقال . لكن كيف لمن طاف الجبال والوديان . الحقول والترع . المدن والقرى . النجوع والكفور . والمحطات الحزينة لاتقف فوقها القطارات إلا لتسم وتتركها في أهوال .

قالها بجفاء . لم يفهم عمه الفقير أنه لاينام مع امه إلا لأنه اعتاد ذلك ، فسكن المصلحة غرفة واحدة ، ومسألة صغيرة تمثلها في العادة بالاعشاب للنوان ، وصفائح كثيرة لا معنى لها ، وعشة أمام البيت أو غرفة للدجاج تأكله العرس ويسرقه اللص . وبالليل نهض معتقداً أن كابوسا هاجم أمه التي اطلقه صوتها المختنق المضغم . فتح غرفتها فرآها تقف مستندة على الجدار ملعورة ، وعمه أمامها متحفزا شرسا .

ـــ لقد سمعتها فسبقتك . الجني ركبها .

•

كان أبوه بعد أن تفيق أمه من غشيها . يضحك . يقول « انهم في شوق اليك . اخوتك يحبونك . اعاني الله عليهم » وكان هو لايعلق . الآن لا يصدق . عاد وخرج عمه خلفه . قال لها في الصباح .

ـــ يا أم نرحل . انني رجل ومتعلم وفي السد أعمل .

بكت وقالت .

ـــ أبوك ينادي . أنتظر حتى اموت .

كانت المرأة الحلوة قد صارت كشعاع شمس شتوية إذا لامس الأرض طرده الظلال . وبالليل صرخت صراخاً ضارياً كأنها أسد . وكل بابها بقدمه فرأى عمه يضربها بوحشية . هجم عليه لكن عمه كان قوياً فطرحه فوق الأرض . رأى عيني أمه وهو منطرح . كانت بعيدة عنه كثيراً وكان بعيداً عنها . انحنى عمه بنهضه ويطيب خاطره .

ـــ لا تؤاخذني بالولدي . ماضربتها إلا علاجاً .

في غرفته الناع . قرر الرحيل في الصباح أو الموت وفي الصباح كانت المدن والقرى قد فتحت أبوابها الأمامية للفرباء . المساكين الذين تفتح لهم في

للسماء أبوابها الخلفية !

ـ أين ذهبت ؟

قال متحفزا فقال عمه بلا مبالاة .

ـ لابد أنها عادت لليهم . أبوك أخبرني أنها ستهرب يوماً ما .

قال مستنكراً .

ـ أين ؟

ـ تحت الأرض طبعاً !

قال العم الذي كان جالساً فوق الأرض يأكل أظفاره . كانت هناك عصا غليظة في ركن من الباحة التي تتوسط حجرات الدار . اليه اليها يبدو . ويبدوه عاد بها نحو عمه الذي جعل ينظر اليه مبتسماً . هل يمكن أن ينتظر أحد الموت ؟ . لماذا لم ينهض عمه ويهاجمه . ؟ أرتفعت العصا وأرتفع معها . سقطت فوق رأس عمه فتبعثر في كل مكان دما ولحما وعظاما مهشمة ، وخرج من صدره هم . أحس أنه خفيف يستطيع الطيران في الفضاء مع الطير والسحاب . ما كاد يغادر الدار حتى شدته الأرض . البيوت أمام عينيه منخفضة سوداء الجبل الذي بعضها يبدو راكزاً فوقها . الشمس الغادرة كانت عالية رغم الصباح تنظر اليه . كانت أمامه رحلة طويلة من القلق والشوق .

○ ○ ○

○ ○ لم يقل شيئا لقمر أو لغير قمر. بالنهار يصطاد الحمام وبالليل لا يحكي حكاياته لأحد . ليته عرف كيف يفسر لها بالأمس نظراته . لكنها فهمت بعد كانت عابثة . لقد سألته .

ـ هل تعرف كم بقية أصطادها ؟

لم يرد . تعجب من الطفل الذي يبدو جاداً . قالت .

ـ إني أعرف كم زبونا شرب عندي شايا .
قال .
ـ كم ؟
قالت .
ـ بالضبط خمسة عشر الف مليون زبون .
ضحك . قالت .
ـ ترى كم يكونون بأصباغ الجمام ؟
ولما طالت ضحكته قالت .
ـ أنا لم يشرب عندي أحد . يأتون ويذهبون . اكسب فاشترى شايا وسكرا أبيعه لاحد اشترى وأبيع .
قال
ـ لا مكسب بالمرة .
قالت
ـ هل كسبت أنت شيئا ؟ لا أحد يكسب الآن .

واليوم ابتلعت الأرض الكشك وقمر . أو طارا معا. أما زالت الأرض سحراً والفضاء خيالاً ؟ . ما معنى معنى السنين إذن ؟ . أم لعله لم يعد يرى جيداً ؟ . إن الذي يرى العصافير لا يعمى عن كشك واسع وامرأة مثل قمر .

○○ تفتح الاسكندرية صيفها لأبناء الجنوب . تفتح الاسكندرية فخذيها لأبناء الشمال . هؤلاء يأتون عبر البحر ويعودون . يلقون أحمالهم من التعب أو الفشل أو الجنون . يرون غلة الشمس المكتوم بزرقة فوق موج البحر وظلال الأليوان السابحة تحت الماء . يسبقون الهواء ويغسلون بالمطر . وأولئك يبدأون رحلة الأحمال . يأتون عبر جسور وقضبان . يضحك بالليل أبناء الشمال في العلرقات المغسولة فيوقظون منتظري الصباح ! . يضحك أبناء الجنوب في الحجرات الضيقة

من منطقة « القباري » التي أستقر فيها في حارة في حي « الكرنتينة » . ومن غرفته الوحيدة فوق سطح البيت المكون من طابقين ، والمزدحم بالغرف والسكان ، المزدحمون بالضحك والشجار ، تعود في السنوات الأول أن يقطع في أمامي الصيف رحلة نصف الى شاطىء المكس . هناك كان يغسل نفسه من كل هم . يترك عينيه تتابعان ضوء النهار الذي يدور فوق الماء باتساع . يبقى له قوس بعيد من الماء . ساحر تقفز فوقه أسماك متلألئة وتختفي مع دورات الضوء . يسمع خربشات الأصداف والقواقع وأبو جلمبو في الصخور الحشفية الملاصقة للشاطىء . يفتح فمه بجوع فزع ليشرب الهواء كله . ينسى أن في الدنيا بشراً لهم القسمة في كل شيء . يعود قبل أن ينتصف الليل . في الترام العجوز لا يجد إلا صبيا عاري الساقين ينام على المقعد وجواره كرتونة صغيرة بها علب كبريت وأمشاط شعر لم تعد ، وشرطي أكثر استغراقا في النوم . وربما رجلا أو اثنين ينظران الى بعضهما في العادة رغم تغيرهما ! والمحصل يغالب النعاس فيشعل سيجارة ويجلس دون أن يتقاضى أجرة من أحد . فوق السطح أمام غرفته يمضي جزءا آخر من الليل يتابع القمر أو يحصي النجوم ، حتى تقف سحب الخريف فوق البيوت فيستعد لجولات الشتاء شرقي المدينة أو للبار فيما بعد .

كان قد حصل على عمل في مكابس القطن بحي « كفر عشري » . صار « قبانيا » يزن البالات . وكان يبذل جهدا كبيرا في أن يمضي أيامه في صمت . يطرد كل هاجس ألم . كان يعرف أنه لو تكلم . سيحكي ويشكو والوجوه حوله متعبة . لكنه كثيرا ما فكر في سكن المصلحة الذي كان ينتقل اليه أبوه . أين هو في الاسكندرية ؟ كثيرا ما قرر أن يسأل عنه . كان يريد أن يرى « عمال الدرجة » في هذه المدينة . وكثيرا ما ضحك حين أمسك نفسه متلهفاً بالرغبة في أن يرى اكتافهم .

ـ لماذا لكل منكم كتف منخفضة عن الأخرى ؟
كان بعد في التاسعة . قال أبوه .
ـ لأننا نحمل الفلنكات والقضبان على ناحية واحدة .
لم يفهم .
ـ ولماذا لاتحملون على الناحية الأخرى ؟ .
ضحك الأب وجلجلت ضحكته . قال .
ـ ذكرني بالقرية وماذا يفعلون بالحمار إذا عرج باحدى سيقانه . انهم يحملون ساقه العاورة فيتعظم سير ويسهل ركبه .
وعاد يضحك وضحكت الأم وضحك هو وقال ..
ـ يمشون الحمار !؟
قال الأب .
ـ أجل يمشون الحمار .

لكنه لم ينقطع عن النظر إلى كتف أبيه وأكتاف زملائه ، حتى قال له أبوه مرة أخرى .
ـ من نوادر العمل في السكة الحديد أن أول عامل قال للذي بعده ، إن العمر طويل ، والسكة الحديد لن تنتهي ، لذلك نخصص كتفا واحدة للحمل عليها نصف العمر ، والأخرى للنصف الثاني ، وسينا جميعاً على النصيحة .

وضحك الأب أيضاً ، وضحكت الأم ، لكنه لم يضحك لأنه كان يرى أكثر العمال كباراً في السن ، وكان يفهم أن الموت لن ينتظر حتى تتساوى الكتفان .
قال الأب مكملاً .
ـ لكن مع العادة تموت الكتف ويسهل الحمل عليها فتنسى الأخرى .

ظلت الصورة تعود اليه . وفكرة أن يرى عمال الدرسة تراوده . لكنها أصبحت أيضا كثيرة فيما بعد ، لأنه سواء في العمل أو في الجلى ، كان يسمع حكايات كثيرة عن الآلاف الذين يأتون الاسكندرية كل عام من أقصى الصعيد وبراهم كل يوم . يقطعون رحلة شاقة على الأقدام ، ويسمع أبناء الاسكندرية يتندرون عليهم ، ويقولون أنهم جاءوا « يعدون الفلكات » . وهو يعرف أنها رحلة قاسية ، مليئة بالجوع والعرى والتسول في البلاد والقرى . تبدأ حين يفقد الانسان كل شيء ماعدا قوة في القدمين الحافيتين وأمل أجر . ففي الاسكندرية يستطيع هذا القادم من الأعالي أن يكون ماسح أحذية . ثم بائعا للكعك أو « البوظة » التي نشطت في السنوات الأخيرة بعد أن أصبح شاربوها يركبون السيارات ويشترون الويسكي من المطارات . ثم بائعا للخضار . والبعض ينجح في أن تكون له دكانة صغيرة . أو يصبح تاجرا في الوكالة له شأن . ومنهم أيضا من يبدأ عاملا في البناء يصعد أعلى الأدوار حاملا « قصعة » الخرسانة على كتفه ولأن بأسفل القصعة تجويف مقعر ، فانها حين ترفع على الكتف تضغط عليها بثقل مائها ، تتنفس الكتف داخل هذا التجويف وترتفع شيئا فشيئا ، وسرعان ما يظهر فوقها نتوء محدب متجمد من اللحم والدم . يساعد هذا النتوء في حمل القصعة ، دون أن يسندها العامل بيده ، أو يثني مفرقها . يصعد بها السلالم الخشبية وهو يغني . لقد صارت مع الكتف مثل العاشق والمعشوق ! . ومن بين هؤلاء العمال من ينجح في أن يصبح مقاولا لأعمال البناء ، ومن يظل بقية عمره يحمل الخرسان ، وقبل أن يموت يعود يمسح الأحذية ويمشي حافيا . لكنه كان يعرف أن رحلة هذه الآلاف لا تطول غير أسابيع قليلة . رحلته كانت خمس سنوات . لم يكن هبوطه من أعلى الى اسفل . كان في كل الاتجاهات . آخر تكون رحلته سهلة من يبحث عن أنسية وديعة ، قالوا أنها من الجن ، لأنها كانت رائعة الجمال . وكان يقول ليس للجن أن يتمثل بشرا وادعون . وليس للجن جمالها . ولا صوت له ولا دموع . لكنه وقد وصل الاسكندرية ولم يجدها قرر أن يحبها ويبقى . انفتحت المدينة الهادئة أمام عينيه ، فكره الأرض التي وراءه ، وأدرك أنه لن يستطيع عبور

البحر ١ .

المدينة التي تقع على الساحل الشمالي لمصر جميلة كما قال المندوس . تركها كتب التاريخ والجغرافيا أكثر من غيرها . لأسمها جرس ورسم جميلان ، وهي لابد تخيل المندوس من أشياها . ولم يعرف صياد الهام إلا متأخرا جدا ، ولعله لم يعرف حتى اليوم ، أنه وصل في زمن للحزن فيه بساط طائر وبساط ملروش وبين البساطين مقاعد كثيرة خالية ..

○○ لم يجد غير أن يستدير ويكمل سيره . لعله يعرف شيئا عن الكشك وقمر حين يقابل الشرطي أو غيره . والآن يدور حول نفسه أكثر من مرة رافعاً البندقية مطلقا الى الأعالي . ولا يدري أن الجزء المغطى من الرصيف قد أنتهى منذ لحظات . يستمر في السير حينا بأستقامة . ينظر إلى « رصيف البصل » الى يمينه . لايرى غير أجولة قليلة . العصافير المتناثرة تطير فوقها وحولها . ينظر الى اليسار . صف العربات الفارغة يحجب ما خلفه . يحاول النظر من بينها . لايرى غير أرض ممتدة تتلوى فوقها فضبان سوداء وعوارض أكثر سوادا تحتها ومرح هواء . يتابع صف العربات بعينيه يجده قصيرا . حين ينتهي يستطيع أن يرى الكشك الخرساني البعيد الذي يجلس فيه الشرطي غريب الأطوار .

○ ○ ○

حين أشار اليه ذهب . لم يلفت انتباهه من قبل . لا هو ولا الكشك الصغير . إنه معني بالهام المراوغ . وكشك ضيق منخفض ملتصق بالسور الذي يفصل المنطقة عن المدينة فلا يكاد يبين ، كيف يلفت أنتباهه . ؟ كيف يفكر أن يداخله أحدا حتى لو كان شرطيا يرتدي بلة ذات أزرار نحاسية تلمع تحت ضوء الشمس . لكنه أتجه اليه . متى كان ذلك ؟ لا يذكر بالضبط . لكن ليس

لأكثر من أسابيع مضت . ولم يعرف هل استجاب لأن الشرطي يستطيع منعه من دخول المنطقة ، أم لأنه لا يتأخر في طلب لاحد ، أو لأن قدميه تستطيعان حمله . ما يدركه أنه صار في الفترة الأخيرة مطاوعا لكل شيء ولا يعاند غير زوجته والحمام ، وهو وإن كان يود لو طاوع زوجته ، فهو لا يستطيع أن يقلع عن صيد الحمام ، أو يتهزم للمؤامرة . سينتظر حتى تفرغ الحكاية ويعود الحمام ولو مرة واحدة !.

فاجأه الشرطي بابتسامة قائلا .

ـ ألا تعرفني ؟

ومد الشرطي يده فصافحه مرتبكاً ينظر الى وجهه الأحمر ، وشعر رأسه الأبيض تحت البيرية الأصفر ، وعينيه الزرقاوين الصغيرتين . كان الشرطي نحيلا متوسط الطول ركن بندقيته على جانب من الكشك من الداخل .

ـ معذرة .

أحضر الشرطي من خلف الكشك صندوقا خشبيا صغيراً . ووضعه أمامه مشيراً الى صياد الحمام أن يجلس فيها جلس هو داخل الكشك الضيق .

ـ أنا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً أجلس في الكشك أراقبك وأنت تصطاد الحمام . ألم تراني ؟

أربتك أكثر .

ـ معذرة .

أبتسم الشرطي كثيرا .

ـ ربما لأنك تنظر دائما الى السماء .

وضحك . فكر صياد الحمام أن الشرطي لديه حديث طويل ، وعليه أن يهيء نفسه . لكن كيف يراقبه هذه السنين ولا يكلمه إلا اليوم ؟ بالرجل مسّ لا محالة .

ـ معذرة . غالبا لا أرى السماء . أرى الأسقف .

ـ أنا أذكر أول مرة رأيتك فيها . هل تذكر كيف كنت ؟

ابتسم صياد الحمام قليلاً .
ـ ربما . بالضبط لا .
تابع الشرطي مزهوا فرحان فجأة .
ـ كنت ترتدي سروالا نصفا وصندلا بنيا . بندقيتك كانت أصغر . شعرك الأبيض هذا كان أصفر . عيناك كما هما خضراوان ، وانطلق الشرطي في الضحك بينما حاول صياد الحمام أن يتذكر هل كان ذلك حقيقة أم لا . إنه لا يتذكر لرتدائه لسروال نصف منذ أنهى المرحلة الابتدائية . ولا أنه غير بندقيته . لم يشأ أن يأخذ الأمر بجدية . فكر أن يتحين الفرصة لينصرف . قال .
ـ معذرة . أنا لا أتذكر شيئا الآن .
قدم له الشرطي سيجارة . ود أن يعتذر عنها . فاجأه الشرطي .
ـ أرجوك لا تحاول أن تنهض بسرعة .

أخذ السيجارة مرتبكاً . حاول أن يقول شيئا . أي شيء ضحك الشرطي بمرح زائد .
ـ أنا كنت كما أنا ارتدي ملابس الشرطة !
ضحك صياد الحمام هذه المرة . وتابع الشرطي .
ـ لكنك كنت قوياً . لقد رأيتك مرة ترفع عربة سكة حديد بظهرك .

ارغم صياد الحمام على الضحك اكثر . قال مندهشاً .
ـ أنا ؟؟
ـ أجل حاول أن تتذكر . بعد النكسة بأيام حين كان سلاح كثير يأتي من الميناء وتحمله القطارات ، عرجت مرة عربة بضاعة من القضيب عطلت الطريق ، ولما تأخر وصول الونش حاول العمال رفعها ، فدخلت أنت بينهم ، ورفعتها بظهرك وحدك من الأمام ، ووضعتها على القضبين ألا تذكر ؟ لقد صفقنا لك ، لأن قطار سلاح كان على نفس الطريق خلف العربة ، وخلفه قطارات أخرى ، ولم

يكن سهلا عمل مناورات وتحويلها جميعا .

حاول صياد الجمام بصدق أن يتذكر شيئا مما يقوله الرجل . إنه يتذكر قطارات السلاح الكثيرة بعد النكسة لكنه لا يتذكر الواقعة . كان فقط كثيرا ما يمرح مع الجنود ويشعر اليوم مشجعا . وكان حديث عهد بالمنطقة لم يمض عليه بها ثلاث سنين ! . قال الشرطي .

ـ تعرف انني فلتمك « الجبار » ولكني قلت الجبار كان أسود ولم يكن يصطاد الجمام ..

لم يفهم كيف يقول الشرطي « الجبار » مفترضا أنه يعرفه . لكن الشرطي قال .

ـ أنت لم تعرف الجبار .. لقد اختفى بعد الثورة .

ترك صياد الجمام نفسه يسمع . لم يشأ أن يعلق بشيء . فكر أن يشرد بذهنه . لكنه حين شرد تذكر سؤال « نمر » عن عدد الجمام الذي اصطاده فأحس بالضيق . قال الشرطي .

ـ كان « الجبار » فيلا ضخما ويأتي ليدفع العربات بيديه ، أو يحمل نصفها على ظهره ويسير بها والجنود الانجليز يتفرجون عليه ، ويضحكون ويعطونه نقوداً . كان يكسب . وذات مرة راهنهم بأنه يستطيع شد العربة بحبوه . أجل . لا تدهش . وطلب منهم جنيه استرليني لو نجح ، وإذا لم ينجح يضربه عشرة جنود على قفاه .. ونجح . ربط في حبوه طرف حبل ، وربط الثاني في العربة ، وجرها كأنه قطار . أعطاه الجنيه الاسترليني ولم يعرف أحد لماذا أراده كذلك . لكن قامت الثورة وأعطى الانجليز . انقطع الجبار .

كان ظهر صياد الجمام الى المنطقة . وجهه في وجه الشرطي . خلف الشرطي

جدار الكشك . على يمين الكشك يساره وخلفه الجدار العالي الذي يفصل المنطقة عن المدينة . الكشك قديم . الجدار أكثر قدما . سقط ملاطه وبانت أحجاره الضخمة التي عشش في شقوقها العنكبوت .. كان صياد الحمام يتابع مسارات الشقوق بعينيه حين هزه الشرطي قائلا .

ـــ طيب . هل تذكر الطفل الذي كان معك . ؟

ـــ طبعا لا أذكر .

قال صياد الحمام بفتور وراغبا في الانصراف . قال الشرطي .

ـــ أنا أذكر . وأذكرك أيضا أنه مات .

أبتسم صياد الحمام ساخرا !

ـــ ما أذكره أنه كان معي صدفة فقط .

ـــ أنا رأيت زميلك هنا . إنه لم يستمر طويلا . أين ذهب ؟ .

ـــ موجود . انقطع عن الصيد هنا .

لم يشأ أن يقل شيئا غير ذلك عن زميله . قرر أن ينهض لكن الجدار القديم العالي بدا يتشقق فجأة ، وتخرج منه رؤوس ألماع ذات السنة عديدة ، تفح فحيحا أشبه بصوت الريح الأشبيه . انخفض رأسه وانغمض عينيه . أخرج علبة سجائره وأشعل احداها ناسيا الشرطي الذي مد يده وأخذ سيجارة لنفسه . قال صياد الحمام .

ـــ معذرة .

قال الشرطي .

ـــ نحن أصدقاء وأن لم نتحدث قبل اليوم . كانت حادثة بشعة حقا ، وكان الطفل جميلا .

كاد الجدار القديم يستوي وارتفع حتى بدا سيصطدم في السماء يعلوها .

ـــ لقد جرى ليحضر بعامة سقطت بين القضبان قذفه قطار سريع . أنا رأيت

ذلك ولم اتكلم ..

ضحك صياد الحمام ، وأحس أنه يتصنع الضحكة . قال
ـ أنا لا أذكر ذلك البتة .
تراجع الشرطي بظهره . أشعل السيجارة . اتكأ الجدار القديم العالي فوق صياد الحمام ، وحجب ضوء الشمس وقمر الليل !
ـ أنا لا أنسى ذلك القطار الملعون . لقد سبق وداس عجوزا مسكينة كانت تبيع الخاوى للعمال . حفرت رقمه على جدران الكشك الثلاثة . انظر .

رأى صياد الحمام رقماً محفوراً . بدا الشرطي في عيني صياد الحمام اله حقا ، لم يعرف أنه بدا في عيني الشرطي مسكينا .
ـ ! أؤمن بالقضاء والقدر . أنت تركت الطفل ميتا ومشيت تصطاد الحمام .

صار الجدار سردابا طويلا متعرجاً ، يصغر حينا يوميض مجهول ، ثم يعود يظلم . وصياد الحمام يسمع صوت الشرطي من بعيد ، وهو يسقط في نهاية السرداب في بئر ساحقة ، بينما أنفاسه تصعد الى أعلى . قال كأنه يهمس لنفسه .
ـ هذا غريب حقاً !
أرفع صوت الشرطي .
ـ ليس غريبا ، يحدث مثله كل يوم ـ وذكره في كتابه ـ لا تحزن . حاول أن تتذكر . كان ذلك منذ سبع سنين وأربعة عشر يوما ـ ونظر الى ساعته ـ وساعتين فقط .

ـ .....
ـ آخر النهار جاءت امرأة تولول ومعها بعض رجال . أخبروهم عن الواقعة وأين يجدوا جثة الطفل . ألم يقولوا لك ؟
ـ .....

ـ لكنك جئت في اليوم التالي . رأيتك تضع الخلاة على الرصيف وتدخل احدى العربات ، وكنت أنا عائداً الى البيت . سرقت يمامة واعطيتها لابني . كذبت وقلت أنها هدية منك . صار يحبك ويحلم أن يكون صيادا ، لكنه صار عطشجيا يسافر مع القطارات ولا أراه .

ـ .....

لم يكن صياد اليمام يسمع . انصرف دون كلمة ، ومشى الى البيت شاعراً بأنه ما يزال يسقط في البئر العميق . ما كاد يدخل ويضع البندقية والخلاة الفارغة حتى خرج . قالت زوجته .

ـ ألا تتوجب عليك الراحة الآن ؟

كاد يصدمها . إنها تحطم القواعد بهدوئها . آه . هي حقاً تبتسم للأسى ، لكنه بعيد الإنفجار .

○ ○ ○

كانت الاسكندرية في تلك الليلة مدينة مظلمة ، أفرغت فيها السحب السوداء من الأرض . لماذا لا تكون الأرض أرضا والسماء سماء ؟ . ظل يسقط في البئر ، وكان القرار البئر . قال الجرسون الذي رآه حزيناً .

ـ هل ستسألني عن مصطفى ؟ . حاول أن تنسى . لا يدخل هذا البار أحد إلا وضحك .

وصار الجرسون يضحك .

ـ هل ستعود الى الصمت من جديد ؟ لقد ظللت صامتا طويلا تجلس وحدك لا تحدث أحداً .

حاول أن يقول شيئا لكن الجرسون كان غاضبا بالفعل ويقول .

ـ هل تصدق أنه يمكن أن تقوم صداقة هنا . انهم يأتون اثنين وثلاثة وعشرة ويخرجون واحدا فواحد .

على بصره متطلعاً الى الجرسون الذي بدا له لايفهم شيئا . لزبك الجرسون فقطع الحديث .

ـــ ما رأيك في الفودكا ؟ . أول مرة تدخل البار . هأ هأ هأ . اختلفت الحكومة مع الأمريكان فقطعت البيبسي والكولا . الآن اختلفت مع السوفيتي . أكيد ستقطع الفودكا . هيه هيه هيه . مع أنها كانت دائما شحيحة . أي صداقه كانت دون الفودكا ؟!

وانصرف الجرسون ضاحكاً لضحك صياد الجمام .

○ ○ بالليل كان الشرطي يضحك عقلا وجه زوجته الجميل . لكنه لم يستطع أن يستمع عن لقائه مرة ثانية . ظل يلقاه بعد ذلك وحتى أمس . وسوف يلقاه اليوم بعد أن ينتهي من هذا الرصيف ، وسيسأله عن « الخبر » . لكن صف العربات لم ينته بعد والايستطيع أن يراه من بينها . إن وخزات البول المتجمع في المثانة تضيق أنفاسه . سيستغل هذه العربة المفتوحة ليفرغه . وبعد أن ينتهي الرصيف سيذهب اليه دون أن يدعوه . لقد لاحظ أنه لم يذهب اليه من قبل إلا إذا ناداه أو أشار اليه . وإنه حين يمر من بعيد رافعا ذراعه بالتحية ، كان الشرطي يرفع ذراعه أيضا ولا ينادبه . يبدو كأن كليهما يعرف أنه لا رغبة عند الآخر في الحديث أو اللقاء . وحين يذهب اليه بنفسه ، أو بعد أن يشير اليه الشرطي من بعيد ، كان هذا ينهض ويقبل عليه هاشا بأخلاقه من يدعه ليجلسه في عجلة بالغة ، ويبدو أن كليهما في حاجة الى أن يستمع الى الآخر ويلقاه .

لم يعرف صياد الجمام ، لماذا كلما فكر في الابتعاد عن الشرطي أو تجاهله ، دفعته قدماه اليه . وكان كلما عاد الى منزله ، تظر الى وجه ابنه الصغير ، الذي يطلب منه كل يوم أن يصحبه ليصطاد وتنهره زوجته . لكن الشرطي لم يعد الى حديثه الأول . لم يذكر بعد ذلك شيئا عن الطفل الذي قال أنه مات تحت

عجلات القطار . سأل حديثه عن المنطقة ، وخاصة عن اللصوص . قال أن المنطقة خالية منهم تقريبا . ورغم وجود فتحات كثيرة في الأسوار المحيطة ، فإنها ليست من صنع اللصوص . وصنعها في الغالب أشخاص يريدون اختصار الطريق ، وليس للجيم صبر للذهاب حتى البوابات الرئيسية ليخرجوا منها . وأنه لايوجد بالمنطقة غير بعض « المساكين » يتزوقون من جمع الفلال الساقطة على الأرصفة ، مثل « هند » وأمها . وهؤلاء تتركهم الشرطة ، كما تترك عمال الحديقة وهم يعودون من العمل ، حاملين أخشابا وألواح صاج قديمة . فهم يخيزون بالخشب ويشعلونه للتدفئة ، يقيمون بألواح الصاج عششا للدجاج .

ـــ أظن أن سكن المصلحة قريب من هنا .

ـــ على بعد أمتار قليلة . هل تعرف أحدا هناك ؟

ـــ لا . لا . إنني كثيرا ما أراهم يعملون ولا أعرف أين يسكنون .

كان صياد الهام صادقا . لقد خرج السؤال دون أن يقصده . مضت سنون كثيرة على اليوم الذي أهم فيه مرة . ثم إنه رأى أهوالا ورجالا أتعب . والاسكندرية ليست سببا في موت أبيه أو ضياع أمه . وهي لم تقسو عليه . إنه يعيش في قاعها ولم يدخلها . وهو لم يعرفها ولم تعرفه . يرى كالسالح ويسمع كالغريب . وقد جاء لايشعر حتى برغبة في الأكل ، رغم أن يوما كاملا قد مر دون أن يأكل غير مرة واحدة . وفوجىء بالشرطي يقول .

ـــ غريب أنك تصطاد هنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة ولا تعرف المنطقة .

ـــ انني أعرف الأرصفة وهذا يكفي .

وضحكا . فكر الشرطي قليلا وقال .

ـــ حقا . هل تعرف اني مثلك لا أعرف غير هذا الكشك ؟ .

استغرب صياد الهام .

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ أنت تعرف عملك . وأنا أعرف عملي . وعملي أن أجلس في الكشك أراقب

ما يحدث أمامي .

وصمت قليلا وقال
ـــ هل تعرف أن المساحة التي يراقبها نقال عاما بعد عام . ؟
ـــ هل تعني أن عدد الشرطة يزداد ؟ .
ابتسم الشرطي .
ـــ لا . لست ذكيا ياصياد . قليلون يقبلون على الشرطة الآن .

فكر صياد الحمام قليلا لكنه وجد الحديث ممتعاً .
ـــ إذن لندرة النصوص . ؟
ـــ لا . ـــ وضحك الشرطي ـــ إن نظري يضعف مع الأيام !
ابتسم صياد الحمام وازداد الشرطي ضحكا وقال ..
ـــ أرغب في الاستقالة .
ـــ لهذا السبب . ؟
ـــ إنها مهنة لا معنى لها .
فكر صياد الحمام قليلا . كثيرا ما يُعاد الحديث ولا يعود الزمن . لقد حدثه صديقه الذي علمه الصيد ، عن شيء مثل هذا من قبل ، لكن أين هو الآن ؟ لم يشأ أن يفكر أكثر من ذلك . لكنه تساءل راغما ترى ماذا سيقول الشرطي أيضا؟ .
ـــ في منطقة كهذه واسعة مكشوفة لا يسرق أحد . هل سمعت عن أحد سرق قطارا ، أو جر عربة سكة حديد الى المدينة . لماذا اجلس أنا أذن هنا . ؟

ابتسم صياد الحمام . قال
ـــ لكنك تستطيع أن تترك الكشك وتجلس مع أي أحد ..
ـــ ومن يؤدي عملي ؟ .
ارتبك صياد الحمام . لم يستطع أن يجيب . قال الشرطي .

ـ خمسة وثلاثين عاماً أمضيتها داخل الكشك . حتى الشاي أصنعه بنفسي .
كان بالفعل لديه موقد كحولي صغير يظهر تحت مقعده . واستطرد
ـ هل تشرب شايا . ؟
ـ شربت قبل أن آتيك .
ـ ها . عند « أم » .
وضحك .
ـ هل تعرفها . ؟
ـ زملائي يتحدثون عنها كثيرا . أكثرهم حاول الزواج منها ورفضت هل تعرف أني لم أرها قط ؟

بعد قليل سوى الكشك المرسالي والشرطي وسيذهب اليه . ترى هل سيخبره عنها ؟ . هل عرف عنها شيئا من زملائه .
لمح أمامه جماعة قليلة من العصافير . تلتقط بسرعة حبات قمح مبعثرة . تطير في بهجة متجمعة ثم ما تلبث أن تتفرق . بعضها طار مع الريح . بعضها ضد الريح . البعض الى الأرصفة الأخرى . يتشي صياد الحمام للمحطات وهو يسمع رفيف أجنحتها . لماذا طارت العصافير حين اقترب منها ؟ إنه يصطاد الحمام فقط . لابد أنها تراقبه طوال السنين الماضية . تراه يصطاد الحمام ولا تصدق أنه لايصطادها . تنتظر اليوم الذي يصطادها فيه ولا يفعل فلا تصدق . ربما تفكر أنه يتركها يوما ليوم آخر . لابد أنها عاشت في ترقب وخوف . ولابد أنها نقلت ذلك لكل العصافير ولقنته لصغارها .

يتجه صياد الحمام لأول مرة ، إنه إنما يسير فوق الجزء المكشوف من الرصيف ، ولا حاجة به لرفع بنطلونه ، وانظر الى أعلى . لقد ظهرت الشمس فجأة ، وانجلت السحب . رانت صفحة السماء ، وعلت حدة الريح . وهو

يشعر الآن ببعض الدفء يسري فيه ، وفي الجو ، وينتبه صف العربات فينظر ، ولا يرى الكشك الخرساني البعيد ولا الشرطي . لايصدق ويقف .

بالأمس أخطأ وسأل الشرطي .

ـ لماذا لم تطلب نقلك الى مكان آخر ؟

ـ نسيت .

وانطلق الشرطي في ضحك عريض

ـ كل يوم أفكر في ذلك بالليل . يطلع النهار أنسى .

واستمر يضحك .

ـ ابني الذي صار حطشجيا يسافر مع القطارات يرسل الى خطابات من البلاد ، ويقول أنه كل ليلة يفكر في العودة وزيارتنا ، ويطلع الصباح فيركب القطار وينسى .

وتندت عيناه بالدمع .

ـ أكثر من ثلاثين عاما أنسى ـ وبعد لحظة ـ المشكلة أني لا أعرف عملاً آخر . زملائي على الأرصفة يجيون من بحار معهم وأنا وحدي أتلوم الذباب . انني اتسلى بحشو البندقية بالرصاص وتفريغها وعده ، ثم حشوها وتفريغها وعد الطلقات من جديد ، مع أنها عشر طلقات لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير .

فكر صياد الحمام في « قمر » كيف سأله عن عدد الحمام الذي أصطاده فسمع الشرطي يقول .

ـ بالمناسبة هل تحصي الحمام ؟ . انني لا أراك تصطاد منذ سنوات . هل أحصيت ما أصطدته من قبل ؟

أربك صياد الحمام . هل يكون للسؤال معنى ؟ لقد صمم حتى الآن مرتين وما زال في منتصف البحر . قال الشرطي .

ـ أنا صرفت من السلاحليك حتى الآن حوالي مائة وثلاثين ألف طلقة . أيام

الجمع والعطلات تجعل العدد غير دقيق .

ابتسم صياد اليمام وهو يشعر أن الصندوق الخشبي ينخفض به . قال .
الشرطي هولا الخشيت .
ـــ لقد رأيت الخبر أمس .
لم يرد صياد اليمام .
ـــ رأيته يخطب في سرادق كبير امام جامع سيدي القباري . لقد رشح نفسه لا
انتخابات مجلس الشعب . كيف لا تعرف وأنت تسكن في الدائرة .
وانطلق يضحك فجأة بينما قال صياد اليمام في ضيق .
ـــ لكنك تقول أنها نفس الطلقات لم تتغير .؟
أجاب الشرطي على الفور
ـــ لكن الأيام تختلف . أليس كذلك ؟
وبدا حازما كأنه يصدر أمرا .

○ ○ ○

يفتح صياد اليمام عينيه على اتساعهما ولا يراه أو الكشك . شيئا فشيئا تعود السحب تقف بين السماء والأرض . يتراجع الدخان . يرتعش قليلا . يرى الدرج في نهاية الرصيف . يهبط . يعبر القضبان الكثيرة والعوارض المقطعة بالمزوت الساقط من القطارات والاسلاك المرتخية . يرى هذا كل يوم ولا يهتم له . اليوم يشعر كأن القضبان تلوي صارخة ، تريد الفرار من المسامير القاسية ، التي تربطها في عوارض حديدية وخشبية ، حفر لها عمال الدوسة في الأرض ، ووضعوها وردموها وذكوا التراب والزلط حولها رغما فصارت هي والأرض والقضبان كتلة واحدة ، ووضعا أبديا لافكاك من أسره . أي سؤال سمعه أمس وما معناه ؟ وما معنى أن يختفي الشرطي والنفر والكشكين ؟ ..

في لحظات ، وبغبظ لا مثيل لها ، يصبح غير معنى بشيء ! ويقترب من « رصيف القصب » . يصعد فوقه ويقف مترددا . كان هناك شيء يفعله قبل أن يصعد هذا الرصيف . ماذا كان يفعل ؟ لا يذكر . رأى منذ قليل شيئا غير الذي كان يراه كل يوم . ماذا رأى وماذا اختفى أيضا غير الغبر والشرطي ؟ لايذكر ؟ هل يعود الى البيت الآن ؟ الرصيف الطويل يبدو مثل كفن . وخال تماما من القصب ، ليس فوقه الا مصاصات قذرة أدهشه أنها كثيرة لدرجة جعلته يتخيل أن جمعا من الملائكة أو الجن هم الذين امتصوا القصب كله بالليل . وإذا لم يكن هناك جن أو ملائكة فلابد أن أهل المدينة كلهم اجتمعوا الليلة الماضية فوق الرصيف يمصون القصب.يقف فجأة ويستدير جاعلا بقية الرصيف خلفه . ينظر الى المنطقة كأنه يقف فوق جبل .

هذه المنطقة هي التي يأتي اليها دائما وليست غيرها . لابد أن يدرك ذلك جيدا وإلا التاث . لن يترك شيئا يفعل به ذلك . يشمع في وقته كجندي يعلن عن وجوده .

الفضاء الرحب يمتد أمامه مكللا بالسحب . اليد صار ينعشه ولا يرهشه . وعليه أن ينظر جيدا . سوف يرى مالم يره . سيذكر ما نسيه . لايمكن أن يختفي كل شيء مرة واحدة . حتى الجمام سيظهر بعد قليل . وتطول رقبته ..

○○ حين وصل الى الاسكندرية لم يكن يعرف أن في الدنيا بحارا . فمن قبل لم يكن ينظر الى السماء . وأول ما واجهه من الاسكندرية فضاء أبيض واسع ، وبحران يتجمع حوله الناس في ميدان المحطة . في حي الكرنتينة كانت الطرق غير مرصوفة ، والمنازل متباعدة ، وسيارات النقل المارة تثير الغبار ولا يرى بين الحين والآخر غير بعض عصافير تقف فوق أسلاك الكهرباء الهوائية ، وأطفال يقذفونها بالحجارة بايديهم أو بالنبال . أزعجت البيوت والطرقات فطارت العصافير رغم أن الأسلاك ازدادت في الفراء . في عمله بمكاتب القطن لم ير بعامة وان سمع

الكلمة تتردد طول النهار في أفواه الرجال يصفون بها النساء . لكنه رأى يوما زميلا له سبقه في العمل « قبانيا » مثله ، فاذا وسمه بصفة صبية . ثم رآه يأتي ويذهب بها كل يوم والمرة الوحيدة التي تحدث فيها مع أحد في غير أمور العمل ، كانت مع هذا الزميل الذي قال .

ـ طالما تعيش وحدك مثلي لماذا لاتصطاد الحمام ؟

لم يفهم كيف يرتبط صيد الحمام بالوحدة . لكن الأمر بدا له معقولا . اكتفى بصدقة صيد ولم يصطد شيئا في اليوم الأول . حين أتى الى العمل صباح اليوم التالي كانت دهشته غامرة . لأول مرة يرى أن تحت « كوبري التاريخ » المجاور تقع ورش قريبة ، لصناعة سفن صغيرة ، لترعة المعدية الممتدة تحت الكوبري . ولأن اللون الأسود الكثيف حوله هو ملابس النساء العاملات . وانهن رغم تعلق ثدي القطن بثيابهن لا يفكرن في تغيير لونها . وانهن يبدين وهن خارجات من العمل للغناء أو الانصراف كطواويس جنازة صغيرة . لكن الثياب السوداء تكشف أيضا عن وجوه بيضاء حسنة رغم الفقر . ويلاحظ أن عمال الفرقة بالمعلج ، تبدو صدورهم مضغوطة الى الداخل ، ويمشون منحنين الى الأمام . انهم لا يحملون شيئا فوق ظهورهم وليسوا عدبين ، لكنهم محدودبون فيما يبدو . ورأى أن الجميع حفاة . يأكلون ، يحملون ، ينصرفون كذلك . راعه مشهد الغناء حين تفرش الأرض حول المكانس والمعالج المنتشرة ، بالتجمعات الصغيرة من النساء والرجال . تبدو جماعات النساء كأكوام سوداء تنبثق منها زهور بيضاء جاذبة . جماعات الرجال مبعثرة لا هوية لها . وربما هم لا يتحدثون خلال الأكل كما تفعل النساء . على يسار كوبري التاريخ اقيمت بعض عنابر قصيرة من الخيش تحتها حلاقون يشم رائحة صابونهم الرخيص وبعض باعة الجبن القريش والقديم والفول والفلافل والخبز الشمسي . فكر أن هؤلاء الباعة لابد يعرفون أن يومية الرجل خمسة وعشرون قرشا والمرأة عشرون . ولا يتقاضى الاربعون قرشا إلا من هو مثله من القبانية والملاحظين .

كان الباعة يقدمون الطعام في أطباق قذرة من الالومنيوم والصفيح . ولم يعرف صيد الجمام أنهم سيلجأون الى طريقة غريبة بعد خمس سنوات مع الارتفاع الجنوني للأسعار إذ سيفتحون « الرغيف الشمسي » ويغمسون في وعاء المش قرشة كانت أصلا مخصصة لحلاقة اللحن ، ثم يطحنون الرغيف من الداخل بالمش مستخدمين القرشة . ذلك أنه سيكون قد هجر العمل ، وفي طريقه الى البار لن يرى شيئا لأنه يذهب مساء . لكنه سيعرف بعد ثمانية أو تسع سنوات أن الباعة والحلاقين اختفوا من المنطقة تماما ، لظهور أعمال أخرى أقل جهدا وربحها بلا حساب !

ذهب مع زميله في اليوم التالي مدركا أنه لن يمشي كثيرا . سيعبر فقط شريطي الترام ويدخل في شارع واسع قصير ينتهي ببوابة حديدية ضخمة ، يعبرها فيجد نفسه أمام منطقة واسعة من الأرصفة والقضبان والقطارات .

علم زميله أسماء الأرصفة . قال أن كل رصيف اشتهر بما يأتي فوقه من بضائع أو ما يطلب عليه منها ، ماعدا رصيف الباشا الذي لا يستخدم كثيرا ، والذي يمكنه الوصول اليه من بوابة أخرى أقرب الى منزله .

قال :

ــ ألا يكون الصيد إلا فوق الأرصفة ؟

قال زميله .

ــ إذا توغلت للأمام ستجد بعض أشجار . لكن الفرصة هنا أحسن . وإذا توغلت بعد الأشجار لن تجد إلا قضبانا تدور حول الاسكندرية .

ابتسم وقال :

ــ إنك تعرف المنطقة جيدا .

قال زميله .

ـ كنت أعمل بالسكة الحديد .
كان يرى زميله مقبلا في العمل على الفتيات والنساء . ويراهن مقبلات عليه . ابتسم وقال :
ـ لاتوجد نساء بالسكة الحديد .
قال زميله مقتضبا .
ـ كنت حقير مزلقان .
وجعل يتابع بهامة تتنقل من عارضة الى أخرى . قال .
ـ وماذا في ذلك ؟
أشار اليه زميله أن يصمت . في لحظات قليلة صوب بندقيته وأطلقها.طارت الحمامة مجروحة تحت السقف وسرعان ما سقطت . حين أمسكها وجدها تلفظ أنفاسها . أخرج زميله مطواه وذبحها ووضعها في حقيبته . قال .
ـ عليك أن تذبح الحمام . لا تتركه يتعذب ليعيش لأنه سيموت وأنت لا تدري !

ومشيا يبحثان عن الحمام . شرح زميله كيف كان عمله لا معنى له ، حيث كان يقضي النهار جالسا منتظرا ثلاثة قطارات يعرف مواعيدها هي التي كانت تمر قرب المزلقان فيغلقه أمام العربات والسيارات التي كانت قليلة .
ـ لكنها مهنة سهلة . لماذا تركتها . ؟
وجد نفسه يسأل . قال زميله .
ـ قلت مرة . المزلقان كان بعيدا عن المدينة ، وكنت انتظر وحدي في كشك خشبي صغير ، في منطقة خالية من كل شيء ، إلا بضع أشجار متفرقة ومترية دائما ، وبين القطار والقطار وقت طويل . كنت أفكر كثيرا وكنت أصاب بالضيق .

استغرق حديث زميله بقية اليوم وأكثر الأيام التالية .في ذكريات سهلة ومضحكة .

كان أبو يعمل على « معدية » فوق ترعة المحمودية وكانوا يسكنون في « غيط العنب » . وحين جرت أول انتخابات لمجلس الأمة بعد الثورة طافت عربات في الشوارع تدعو الناس أن يعطوا أصواتهم بحرية لأول مرة ، وتدعو النساء بصفة خاصة أن يعطين أصواتهن . يوم الانتخابات خرجت أمه مصدقة ، ومعها جيش من نساء الحي لا يعرفن حتى اسماء أطفالهن . حذر أبوه أمه كثيرا من ذلك لكنها ركبت رأسها . امضى ابوه يوم الانتخابات في البيت وخرجت هي . وكان الحي منقسما بين مرشحيه الاثنين . « الجعافرة » يؤيدون مرشحا « والجهاتوه » يؤيدون الآخر . والفتحان متصلتان أصلا بالصعيد وكثيرا ما يقتتلا في غيط العنب . فامت معركة بينهما عند باب احدى اللنجات المجاورة لنقطة البوليس ، طارت فيها زجاجات البيبسي قبل أن تنقطع من البلاد ، فصالت واحدة رأس أمه فسقطت تحت الأقدام تترنح حتى ماتت .

أما أبوه فقد حزن كثيرا عليها ، وأحس بذنب كبير لأنه لم يمنعها بقوة ، فجلس معظم وقته في البيت يقرأ القرآن ويدعو لها . ولأن شقتهم في الدور الأرضي ، كانت نوافذها تطل على الشارع بحيث أن السائر فيه لو شب قليلا على أصابعه يراهم . والشارع رئيسي يمر منه غرباء ، لذلك كان أبوه حريصا على أن تظل النوافذ مغلقة معظم الوقت . لكن حدث أن بدأ « الأوتوبيس » السير في الحي لأول مرة . خرج الناس جميعا الى الشارع وصعدوا فوق الأسطح يتفرجون . فتح أبوه النوافذ وتركه يتفرج واخوته . كان الأوتوبيس كلما أتى حياه الناس وصفقوا كلما عاد . فجأة خرجت احدى العجلات الخلفية من أحد الأوتوبيسات وظلت تدور بحرية فوق الأرض منحرفة قليلا الى الرصيف كانت كبيرة ومندفعة فاصطدمت بحافة الرصيف مما أدى الى ارتفاعها عاليا مع استمرار اندفاعها الى الأمام . بعد النقطة التي اصطدمت بها مباشرة كانت نوافذ شقتهم . دخلت العجلة المرتفعة من احدى النوافذ ، وسقطت فوق ابيه الذي كان يصلي فمات في الحال .

وغير ذلك كثير لم يشأ أن يقصه . قال أنه كره العمل لأن الرحلة وطول الوقت كانا يدفعانه للتفكير فيما مضى . اشترى بندقية رش وجعل يصطاد العصافير التي تأتي لتقف فوق شجرة مجاورة . وحين لا تظهر العصافير كان يمشي قليلا في المنطقة الواسعة الممتدة ، يبحث عنها فوق الأشجار المثمرة ، ويعود مراعيا أن لا يتأخر عن مواعيد القطارات . ذات مرة ظل يمشي فوجد نفسه في بيته . في الصباح حقائبه معه وفصلوه . في ذلك اليوم بالذات وقعت حادثة . اصطدمت سيارة نقل بقطار . وفيه بالذات كان القطار عسكريا ! وجاء في خطاب الفصل من العمل « إهمال ترتب عليه تأخير قطار على درجة عالية من الأهمية » .

وضحك زميله وقال .

ـ سألت هل هناك حرب ولا أدري فقالوا في اليمن .

وضحك أكثر قائلا :

ـ لم أكن أتذكر أن قطارا يمر في البقعة التي أجلس فيها يمكن أن يؤثر في حرب تجري في اليمن !

طال الزمن على حكايات زميله ، لكنه لم ينسها أو ينساه . كثيرا ما تساءل بعد أن اختفى فجأة لماذا حقا علمه الصيد وتركه وحده ؟ لماذا اختفى ولم يقل ؟ وحين لم يعد يتساءل كثيرا ، وبدا أنه اعتبر لقاءه بزميله عابرا فوجيء بخطاب منه . كان ذلك منذ خمس سنوات . بعد عشر سنوات تقريبا من اختفائه . قال له في الخطاب « أرجو أن تكون نجحت في أن تحل مكاني بين النساء في العمل » لم يكن يعرف أنه تزوج وهجر العمل مكتفيا بصيد الحمام . وقال « أرجو أن تكون متقدما في الصيد » فيما لا يحسب السنين . في خطاب آخر قال « لعلك لم تحل المنطقة » فيما قد نسي سحرها الذي صار يشد صياد الحمام كل صباح حتى الآن رغم حتم السنين الخمس الماضية . ثم أرسل اليه خمس خطابات كانت كلها عبارة طويلة تقول « إنني أصطاد في منطقة غريبة . يمامها عجيب . وإذا استطعت أن تهجر الصيد عندك فالحق بي » . فكر صياد الحمام

كثيرا في هذه الفترة . لم يفكر أن يذهب اليه . فكر فيها اكثر بعد أن انقطعت الخطابات تماما . قال في نفسه لماذا لايأتي زميله اليه . يعرف أن زميله لو أراد شيئا فعله . ربما لأنه لايرد على رسائله . لكنه تذكر أن زميله لم يذكر له عنوانه قط في أي من الخطابات . حاول كثيرا أن يتذكر ملامح هذا الزميل فتفشل . لم يعد يعرف ما إذا كان قصيرا أو طويلا أو بين بين . أسود أو أبيض أو بين بين . تساءل هل حقا كانت حكاياته حقيقية . هل هو الذي يرسل اليه هذه الخطابات-لا يذكر أن زميله عرف عنوانه مرة . كيف أذن عرفه الآن ؟ . لقد جعله حديث الشرطيب يتذكره بعد أن أهمل التفكير فيه نهائيا . هل كان زميله حقا من البشر ؟ الفضاء حوله الآن متوقف عن الحركة . البضائع قليلة فوق الأرصفة ولم يظهر أحد . العربات عجوز عجوز . ومايزال يقف وقفة الجندي الذي يعلن عن نفسه . لكن لماذا يكون زميله كاذبا ؟ ولماذا يكون صادقا ؟! . كانت « قمر » حقيقة حتى أمس وها هي اختفت ومعها كشك الشاي ، وبها . كذلك كان الشرطي الذي ماعرفه إلا متأخرا ليحدثه بأشياء غريبة . لكن ما يزال في اليوم بقية وقد يعرف شيئا عنهما . وقد لا يعرف . لا يقين إذن . لايقين . حتى صوت الريح التي عادت تشتد لا يعرفه . ولا يعرف ماإذا كان قول زوجته في الصباح عن البرد الشديد حقيقة أم وهما . ولكن لماذا عساه قد نسي وحاول أن يتذكره . لا يهمه ذلك ولن يهمه فيما بعد ! .

يلتفت ليمشي فوق رصيف القصب . يحكم السترة ويرفع البندقية وهو لم يزل في بداية النصف المكشوف ! . لا يرى بلما وهو ما خرج إلا للصيد . لا يسمع إلا صوت الأوراق تطوحها الريح . لكن مايزال هناك يقين بالفوز !

○ ○ يكتشف صياد البجع أن في قلبه جرح اختفاء زميله ، وخطاباته الغامضة . علمه الصيد لسبب لا يعلمه ، بينما قال هو في نفسه حيلة جديدة بها

ينسى . وكانت الأيام طيبة معه فابتعد الماضي كثيرا كثيرا ولم يعرف أحد عنه شيئا حتى زوجته . لكنه يعرف أنها لم تصدقه ، حين قال إنه فقد والديه بالموت ، مثل كل الناس . كان يشعر بها تتابعه في شروده ، وكثيرا ما أحس بالضوء منعكسا من عينيها الى عينيه ووجهه ، ولا يدري تجاهها . كان هواء البحر ورذاذ الموج وسرعة قدميه في أماسي الشتاء تغسل قلبه وتجلو عينيه ونفسه . كذلك كانت جولة الصيف المسائية . حتى بعد أن أقلع عن ذلك واكتفى بجلسة البار لم يتزحزح . استمرأ دفء الخمر وانعاشها وقلوع حزنها . لم تعد له علاقة بأي من الرواد إلا متأخرا جدا ، ومرة واحدة . ظل يلعب وحيدا ويجلس وحيدا . يتأمله الجرسون ويقول ضاحكا . « أنت مثل الله تجلس على الكرسي وتحاسب البشر ! » .

كان في البداية يجلس صامتا خائفا الى حد كبير . يتحدث الى الجرسون بالتضاب . يطلب الخمر الذي صار يحبه . الروم والويسكي في الشتاء البيرة أو الذيب في الصيف . بعد ذلك أخطف نظاته حين صار يتحدث بلا خوف ، ويجلس بلا مبالاة . صار الجرسون يعرض عليه الأصناف ويطلب أن يجربها . لاحظ مع مضي الأيام أن الخمر تجلب لوعا خفيفا من الحزن يتسرب اليه مع كل كأس . ترك نفسه لذلك الحزن العجيب الذي ساعد عليه دفء شتاء الاسكندرية ورطوبة صيفها . لكنه ما لبث أن قاومه وطارد كل فكرة تحاول أن تطل من عين الماضي الذي يريد أن ينساه . صار يشرب ويعرف أنه سيحزن ويجاهد أن يسافر بعيدا عن الأسباب القديمة . يترك صدره ينقبض . وجهه يتقلص . إذا دمعت عيناه لا يبكي ولا يمنعهما ! . يضرج على نفسه ويقول في عزم « لن أموت أبدا . لن يفتني شيء . والدنيا لن تدور دورة كاملة » . وكان رغم المزال الذي يلحق بجسده ، يريد أن يمسك السماء بقبضته يسحقها في الأرض . أجل . كثيرا ما فكر في ذلك وهو جالس تحت شجرة التوت الضخمة الواقعة بعد نهاية رصيف الباشا بقليل . كان يرتاح تحت ظلالها بعد أن ينتصف

النهار . ينظر الى الأكشاك الخشبية الثلاثة امامها والتي بها بعض عمال المركة . يفكر في أنه قوي ولن يستسلم . بالمنطقة أكثر من شجرة مغرقة . لكن هذه ذات جاذبية سرية .. ثمارها العريضة أكثر أخضراراً . تنثر سكينة على الأرض هو احوج ما يكون اليها . شجرة تكاد تتحدث بحنين دافق . حين يجلس تحتها يحس كما لو كان يضع رأسه على صدر الكون . تصبح الدنيا أما عطوفا . يتمدد على الأرض مستندا بظهره الى جذعها الضخم البارد ، واضعا البندقية جواره ، مرخيا قبعته فوق عينيه . لاينام . لا يحلم . فقط يرتاح . يتسرب التعب من أصابع قدميه وقلبه ! . إذا تساقط فوقه بعض التوت الأحمر أو الأخضر يأكله . يأكل الطعام الذي اعدته زوجته . وكثيرا ما فكر في « قمر » . إنها رغم جمالها وجسدها الأسمر لاتثير فيه رغبة جنسية . يفكر في وضعها وحيدة تنام في كشك وحيد في خلاء واسع كأنهما لبنان شيطانيان انشقت الأرض عنهما ، أو قذفهما السماء . قرر كثيرا أن يقلع عن النظر اليها . إنها الوحيدة التي ترده الى الماضي . إنه ، حقيقة لا يعرف ما إذا كان يكرهها أم يحبها .

في السنين الأولى فكر كثيرا في زميله الذي اختفى . حين أنت الخطابات احس ببعض الاطمئنان . لكنه فكر أيضا في طريقة زميله في الحديث اليه . واليوم يدرك شيئا يثقل أن يعطيه فيه . لقد لوعه زميله في شراك جميلة . إنه لا يأتي بعيدا عن الجبل . فهو لا يستطيع أن ينقطع عن المجيء حتى بعد أن غاب الجبل . أي صياد كان لابد يهجر المنطقة فور نضوبها من الصيد، وهو يتمسك بحبال واهنه . ماذا في المنطقة من سحر لتشده إليها هكذا . لماذا يأتي ؟ قمر التي لم تتحدث إلا بعد خمسة عشر عاما ؟ . الشرطي الذي شكا جرح " بلوكه وأن احس بباب الخلفه ينفتح عليه !؟ الأرصفة ؟ . العربات . ؟ البضائع ؟ العصافير المذعورة ؟ « هند » جامعة الحبوب وأمها التي لم يرها ؟ شجرة التوت والاكشاك الثلاثة والعجوز الذي صادفه تحت الشجرة ؟ . كل ذلك مجتمعا ؟ . لايعرف .
لم تعد هناك فرصة أن يفكر أكثر من ذلك .

لقد تذكر بعد أن مشى كثيرا فوق الرصيف ، أن ما نسيه هو الشجرة والأكشاك الثلاثة والعجوز . إنه لم يرها حين انتهى من رصيف الباشا . لم يرها حين التفت ينظر . أنبسطت الأرض أمام عينيه . صار مكانها مربعا خاليا متربا . لقد نسي أن يجلس هناك لأنه لم تعد هناك شجرة ولا عجوز . اختفيا مثل الشرطي وقس . ويحس الآن بالضيق يكاد يخنقه . لكن رفيف أجنحة قوى ومتعاقب يملأ الفضاء فجأة . ينظر . مظلة من العصافير كثيفة . العصافير تساعد نفسها بقوة رفيفها على الاتزان في الهواء . المظلة لا ترتفع عن سطح الرصيف إلا قليلا . يقترب وهو يعرف . يود لو يتراجع ولا يستطيع . ماذا سيفعل الآن . ؟ كيف سيقاوم الغثيان والكره على القيء . هذا الصبيان اللئيم لماذا يظهر اليوم ؟ .

○ ○ ○

لايعرف أحدا يكره الصابون مثله . يكره شكلها المسلب مجموعة . رؤوسها المبطنة جيوبها الصفراء . انتبر صارخا . القى عليه تلميذ صابونا ، قال إنه ليس بصابون . لكنه كان قد صرخ . قال التلميذ وهو يضحك أنه من الجلد الصناعي . ضحك التلاميذ فقال إنه أشتراه من طنطا من المولد . جلس الى التخته مقهورا . فتح الدرج . كان المدرس يكتب تاريخ اليوم على السبورة . وهو يجاهد أن يمنع نفسه عن القيء . كان داخل الدرج صابون آخر . والأولاد جميعا ينظرون اليه وينتظرون . تقيأ وبرزت عيناه . ازدادا الانطلاق وصدته . دار به الفصل . « يا حيوان » . هتف المدرس فزعا من صوت القيء . كان قد بدأ يفارق الوعي . سقطت ذراعاه داخل الدرج وتلوثا .

الآن يجد الظل حوله في كل مكان . الجو صار أكثر رطوبة . ليس هناك شمس كبيرة أو صغيرة . ينظر فوقه . سقف الرصيف سحاب قاتم قريب . كان قد اقترب من سطح الرصيف . فسر له سقوط عش صغير جوار الصبيان وجود السقف فوقه . الصبيان يقف على جزء صغير من ذيله . يرتفع ماذا جسمه

الطويل . في فمه عصفور صغير سقط مع العش . لقد مشى أكثر من نصف الرصيف ولا يدري . صوت العصافير ورفيفها يدفعه لأن ينهي المرقف . اعماله تلفته أكثر . الثعبان يتلوى ولا تنعكس عليه أي أشعة . العصفور الصغير بلا ريش . أحمر الجلد . زغب قليل يغطي أعلى رأسه . إنه يراه جيدا رغم تراجعه . يرى حتى عظام ساقيه والعظمة الناتئة فوق الإست . يرى منقاره الصغير جدا . والدائرة الصفراء حول المنقار . لابد أن يقتل الثعبان .

○ ○ ○

قال العجوز فزعا « انتظر » . هذه أول مرة يراه . كان جالسا تماما تحت الشجرة . اختفى قليلا وأقبل فرأى ثعبانا رفيعا صغيرا يزحف وئيدا ناحيته . قفز واقفا مذعورا . تناول البندقية من الأمام ورفعها ليضرب الثعبان . وقف ينظر الى العجوز متدهشا رافعا بندقيته . توقف الثعبان عن الزحف وبدا كأنه ينظر اليه . انحنى العجوز وفرد كفه فصعد عليها الثعبان .

ـــ إنه أليف .

قال العجوز مبتسما . وجهه صغير بريء كوجه طفل . قال صياد الهمام لنفسه فيما بعد : أن الشيوخ والأطفال يلتقون عند نقطة واحدة من خلف الزمن . كانت التجاعيد الكثيرة في وجه العجوز ، تبدو مضحكة حين يبتسم أو يضحك . وظلت عيناه ضيقتين ويرتدي دائما الملابس الخضراء العاملين في السكة الحديد .

تكور الثعبان في يد العجوز وبدا نائما . ابتعد العجوز به ثم عاد بدونه .

ـــ وضعته خلف الكشك .

ظل صياد الهمام ذاهلا . اليوم شديدة الحرارة . بدا له وكأن شجرة التوت أحرقت وأن النار تشتعل حوله في أركان المنطقة .

ـــ أراك هنا كل يوم وتمنيت أن اجلس معك .
قال العجوز فتعجب صياد الحمام .
ـــ ولماذا يمنعك . الشجرة والمكان ملككم وأنا غريب . ؟
ـــ حين تأتي أكون انتهيت من الجلوس تحت الشجرة .
لم يفهم صياد الحمام . كان ذلك منذ اعوام غريبة . لم يشأ أن يتحدث أكثر من ذلك . قال العجوز .
ـــ حاول أن تأتي قبل ذلك بوقت كاف .
لم يكن صياد الحمام يدرك أنه يأتي في وقت محدد . فهو في أيام الصيف حين ترسل الشمس أشعة غيبة ثقيلة في تفاصيل أصبي مقيت ، ويبدو القضبان كأنها خطوط ثابتة كالحة صدئة لا تبرق ، وينبع المزوت كدم أسود متخثر ، والقطارات والعربات ساكنة متباعدة في خصام أزلي ، كأنها قطع أحجار ضخمة تركتها الطبيعة بلا عناية منذ ثورانها الأول ، حينئذ يجنح للجلوس تحت الشجرة . ترك العجوز ولم يفهم معنى أن يكون الضباب اليقا ..

○○ جعل يفكر في حجر أو قطعة حديد يبني بها الموقف . فكر أنه لن يستطيع الاقتراب مرة ثانية . وربما أخطأ الضباب فقفز اليه . صياد الحمام لا يفعل ذلك . يعرف أنه لم يصطد شيئا طوال خمسة أعوام ، لكنه لا يزال قادرا على التصويب . أبدا لم تظلم عيناه أو ترتعش يداه . لقد علمه رجل كان يصطاد النمل السفري فوق الأرض . تركه أجل !. يغازله من بعيد بخطابات غريبة حقا !. لكنه ـــ صياد الحمام ـــ يستطيع قتل النملة لو طارت في الفضاء !! فليذهب إذن ظنه من تصور أنه لم يعد ماهراً . وليذهب ظن الحمام الذي يختفي معتقدا أنه حين يعود سيكون صيادة قد مرح . إنه ، صياد الحمام ، طيف ليل في نهار مشتعل . حلم خالت في ليل شديد الثقل . وغبي من قال أن خمس سنوات عجاف هم ثقيل . زوجته غيبة . الشرطي غبي . قمر . هند . العجوز . يسألونه ما إذا كان

يعرف عدد الجمام ، ولا يعرفون انهم أضاعوا ايامهم في العدد !! إن الذي اصطاد في جنح الليالي يماما كثيرا يحلم فوق العوارض وتحت الأسقف لا يهرم أبدا . الذي تركب فوق بندقيته كشافا رفيع الضوء ، واختاره كذلك لحدثها المجهول ، وصمم على أن يكون قطر دائرة الضوء عند نهايته حين يصطدم بالسقف العالي ، لا يزيد عن حجم العصفورة !! ، ويميز به الجمام ، ويدرس للدنيا أنه ما صاد وخاب ، هذا الصياد لا يعرف الفرح . يعرف فقط : إنه ما يركز الضوء أكثر من مرة . لم يبحث قط . في كل مرة كانت يمامة . قبل أن تفتح عينيها تكون بين يديه . تسقط ثالثة . يقطع احلامها بعد فيه طيران وحبوب . لم يسمع ، لا هو ولا الجمام ، صوت حبة رش أصطدمت بالسقف . لم يغطيء جسم الجمام . إنه ثعلب . بل يتعلم الثعلب من صياد الجمام . ولسوف يقتل الثعبان بحبة رش واحدة . هذا المخلوق المقزز الذي لم يصدق أنه يمكن أن يكون أليفا .

○ ○ ○

ـــ إنه ثعبان أعرفه . يمضي النهار فوق الأرض وبالليل يسكن سقف الكشك الذي أنام فيه . إنه « بيتي » . الثعابين التي تسكن البيوت تألفها وتألف سكانها .

قال العجوز فقال له .

ـــ لكنك فتحت بيتك فصعد عليها . هذا شغل حواة .

ضحك العجوز الذي بدأ يصب الشاي . في المرة التالية . قال .

ـــ الحواة تحطم أسنان الثعابين أو تخلعها من النوع غير السام . إنا لم أفعل ذلك . إننا نعيش معا . ثم إنني تعلمت كيف أروض الثعابين من الهنود .

صار يذهب الى الشجرة في وقت يكون فيه العجوز جالسا تحتها . ثم

يعرف هل قصد ذلك أم أن العجوز هو الذى غير موعده لم يفكر فى ذلك. صار يمس كأن السماء ارسلته هو والعجوز فقط الى هذه الدنيا ليعيدا ترتيبها . ظلت الفتة عظيمة بينهما حتى فى أيام الريح والمطر .

ـ يقولون أن عمر هذه الشجرة مائة عام .

قال ، العجوز ذات مرة . قال صياد الحمام .

ـ إنها قوية .

ـ ظلها عجيب . بارد كالثلج

كان ظل الشجرة كذلك فعلا . اعترف العجوز .

ـ هل جلست تحتها فى الشتاء ؟

ـ لا .

ـ تسقط الأمطار حولها ولا تطولها . لاتصل اليها الريح الباردة . تدفئ دفئا ـ وضحك العجوز ذو الوجه الطفولي ! ـ أقول دائما أن داخلها بالشتاء صيف وبالصيف قمر ، وإنها بالليل تضيء حولها وتحتها ولا يصدقني أحد .

○ ○ ○

وهو أيضا لا يصدقه أحد . يتصورون أنه صار عاجزا عن الصيد وعاقبة التصويب . الآن سيقتل الثعبان دون أن يرى منه غير الرأس الصغير .

يتبطح أرضا ورأس الثعبان يعلو حافة الرصيف بكثير . لابد أن الثعبان يعرف نقطة ضعفه . يريده أن يرى جسمه فيتقياً . لن يعطيه الفرصة . العصفور لا يزال وسط الفم . الثعبان لا يبتلعه ولا يتركه . لا يأكله . الثعبان الخبيث لا يبني الموقف . العدو الأزلي للعصافير يباغي بعصفور صغير كونا فوقها . وصياد الحمام لا يحب الزهر . أبدا . ماحاجة الإنسان الى كسر قلوب

العباد ؟! . وماهية الانسان إذا كسر قلبه أحدا ؟ . صياد الحمام لا يحب الظلم . لماذا لا تأكل التعابين الثعابين فيشيع العدل في العالم !. هذا الكون الظالم هو الذي جعل الانسان يأكل الحمام . جعله يصطاده . جعله ظالما .

○ ○ ○

ـــ أنا فنانيلجي . أنت صياد حمام فقط .
قال العجوز فرد صياد الحمام .
ـــ أجل .
ـــ ألا تصطاد الحمام ؟
ضحك . ظنها نكته . قال .
ـــ للحمام أصحابه .
فكر العجوز قليلا . قال .
ـــ أليس للحمام أصحاب ؟
فاجأه . قال مرتبكا .
ـــ لا أعرف . إني أراه سابحا في الفضاء .
ضحك العجوز بشفة وعينين .
ـــ لا عليك ـــ وصمت لحظة ـــ لكني لا أراك تصطاد هذه الايام . ألا تجرب منطقة أخرى ؟

لم يشأ أن يحدث العجوز عن رغبته في استبدال البندقية بأخرى أكبر وأقوى تقتل ما تحت الأرض وفوق السماء . ان يحدثه عما يشعر به هنا . إنه يتحول الى بقعة تطيرها النسائم ، يحس أن جلده يتغير ويتسع لتتنفس من خلاله الدنيا بحرية . يرتاح ويتنفس من كل مسامه .

كان العجوز يطلق النظر الى وجهه . جعل هو يطلق النظر في طاولة صغيرة من عمال الدرجة يجلسون يكتبون ويكتبون . الأقلام ضخمة لأن أحدهم كبير . ملابسهم الخضراء فاتحة . على اكتافهم « علامات » علقت بها خلف ظهورهم « مقاطف » لابد أن بها قطعا من اللحم والخشب يستخدمونها في إشعال النار في بيوتهم . وليس بعيد عنهم بمسافة أخرى تحفر في الأرض بعد أن رأوا قضبان لابد سيغرسونها .

قال العجوز وفاجأ صياد اليمام كعادته التي عرفها فيما بعد .

ـــ أنت تشبه ابني تماما .

ـــ هل لديك أولاد ؟

ـــ واحدا . مات . كان صياد يمام أيضا .

أرتبك . أحس أنه سقط من سقف الرصيف فوق البلاط المربع الصلد . لكن العجوز أبتسم . أراد صياد اليمام أن يحول الحديث .

ـــ أنت تصنع شايا ثقيلا حلوا .

ـــ تعلمت ذلك في الصحراء من البدو .

ـــ كيف ؟

ـــ أصاب بغتة أسفل سقف الرصيف فطارت وولغت فوق عارضة ولم تسقط . صعد بأبي بها فسقط . !

إنه ليس بظلام الآن . إذا كان الكون يعانده ويحجب عنه اليمام ، فلقد سبق وقتل اليمام ابن العجوز . الصياد الماهر لم يعلمه كيف يكون اليمام ظلا . لعله نسي .. وربما ليستكمل الخدعة . وربما لأنه لم يخطىء في الصيد . قال له « لا تطلق

حبة رش واحدة في الفراخ . أصعب شيء أن يشعر الحمام أنه مطارد . تق في نفسك واطلق حبة الرش وستصيب . الحمام مثل البشر يظن أنه يعيش سعيدا ، ولا يجب أن تسلبه هذا الظن . بلاغة هي حقا تسيطر على الطير والحيوان وبني آدم ، لكنها وقد طال بها العهد صارت عين العقل . ألا ترى أن الناس حين يموت منهم أحد فجأة لا يحزنون كثيراً . إنهم يشعرون بضعفهم فيستسلمون . وربما لا يشعرون بأي شيء . لكنهم يستسلمون . إنهم في الحقيقة لا يريدون القاء الحصى في الماء الراكد . السعادة ماء راكد . لكن إذا مرض الانسان كثيرا قبل أن يموت ، أو أصابته حادثة ولجأ ليعاني جراح الموت ، فالناس تشعر بالظلم حين يموت ؟ . لقد فشلوا في علاجه في وقت عجل لهم أنهم قادرون . دخلوا حربا عظيمة فجرد أنهم حشروا في لغتهم شيئا إسمه القدرة أو الأمل واجهوا حقيقة لم يحبوا مواجهتها . إحتل العقل مكان البلاغة ونسي المساكين أنهم لا يملكون ذلك . لهذا لاتطارد الحمام إذا اجتمع . صوب بحيث تذهب حبة الرش في مقتل ، فتسقط الحمامة من بين اخوتها . سترى الحمام يطير بعيدا ينتظرك . لن يعرف أنه الموت لأنك لم تكن موتا . كنت صيادا وعليك أن تظل كذلك فلا تكون ظالما.

هذا الثعبان الذي يرى مظلة العصافير المذعورة فوقه ، هو الظالم الوحيد الذي يستحق القتل . شيء ثقيل يتحرك في معدته وعليه أن يتبين . لاتدث الشمس يوم طويل ولايعرف الوقت ، لكن لايزال في الكون ضوء ولو ضئيل ، وهو يستطيع أن يرى . صياد الحمام صبور حقا ، لكن الأريب عليه أن يعرف اللحظة التي ينحني فيها الصبر . رأس الثعبان ليس بمامة . لكنه سيجعله كذلك .

تضايقه الخلاة المعلقة حول كتفه فيخلعها بسرعة ويضعها جانبا . يباعد مابين قدميه ، يرتكز بمشي الخذلان على أرض الرصيف . يرفع نصفه الأمامي الى أعلى ويصوب . رفات أجنحة العصافير صخب عاصفة حمقاء . رأس الثعبان

يختفي أسفل حافة الرصيف . يرى بدلة شديدة حافة ظهر العصفور . لا يصطاد العصافير . لايفهم ، وربما لايفهم أحمد لماذا ؟ آه . ربما لو اصطاد عصفوراً مرة لم تمر السنوات الخمس بلا صيد !

○ ○ ○

ـــ لماذا لا تصطاد العصافير يا أبي . ؟

ـــ .....

ـــ عندي معك أصطاد . أنت كبير تصطاد الحمام وأنا صغير أصطاد العصافير .

ابتسم .

ـــ لماذا حقاً لاتصطاد العصافير ؟

قالت زوجته وهي تضحك . كانت معطرة بعطر رخيص .

ـــ لماذا لا تستحمين وتزيلين هذا العطر ؟

غضت وهي تبكي . سمع صوتها في الحمام . يحبها لكن لا يعرف ماذا يباعد بينهما . لايريده أن يصحب الطفل وهو يعد .

كانت وهي تضع الأكل للحمام فوق السطح تسقط فوقها أشعة الشمس الثالثة فتجعل ظلها طويلا ممتدا . كان يرنو اليها . أمسكت بحمامة وكلمتها . عرف أنه يمكنه أن يفعل أشياء كثيرة . توقد أحساسه . أدرك أنه يمكن أن يكون له تاريخ . حقا . لكن كيف بالذي ضاع منه العلم والعائلة والوطن . أي ظلام وأي نور ممكن . ؟ في الصحراء إما أن تصرخ أو تموت . إنه يكره الموت رغم أن كل ما عرفه أحبه ! . قرى وحقول . ناس تتحدث في الهواء الذي يسع كل شيء . حفاة وعراة ولصوص . قطارات تتكدس فيها العربات والأجساد . أخرى تنظر العيون فوق الأرصفة الى ما يظل من خلف زجاجها اللامع من بلور ! . محلات عمل فيها وحقول الجنى فوقها يتزيد بزاد قليل تزلمه الرحلة القادمة ،

وهو يسأل الم تر بكم امرأة بيضاء لا يعرف أحد لها وطنا ، رآها رجل ابيض ولم إنه من قاع الصعيد ، فقال « أنت لابد من الشمال لأنك بيضاء ! » ولم ترد ، فقال إنها من وراء ظهر الدنيا وتزوج بها وراء القضبان ثم تركها وتركته !!! يسأل والقرى الصغيرة تشفق عليه ، وتحسر اعينها وشفاهها ، وماتلبث أن تغلق أبوابها الخلفية . المنذ الكبيرة ، لوقفه على الجوع والموت فيحب الحياة هاربا من أبوابها الواسعة ، وهو الآن يريد أن يريح مرة .

أتجه الى حجرته وعاد بين يديه بعلبة لم ينزع ورقها . جعل يفعل كما تفعل مع الحمامة . كانت الحمامة تسمع والحمامة عرعراء . الحمامة ترفرف والحمامة ساكنة . حين أقترب من السور الفاصل بينهما قال .

ـــ هل تحبين الحمام . ؟

أشعة الشمس المائلة تنام فوق عينيها ووجهها المستدير . تألقت العينان السوداوان ولمع بياضهما . علمته عينا أمه أن يحب العيون السود حين تواجه اشعة الشمس فيتألق البياض والسواد معين . وكم قالت له أن عينيه الخضراوين أجمل ولم يقتنع . تركت الحمامة من يدها فطارت هابطة منقضة إلى بقية الحمام الذي يتقافز فوق السطح ويهدل .

إقتربت منه فقال كم هي جريئة الاسكندرية . هل حقا ستقبل عليه بالبراءة التي في عيني الفتاة ؟ . أم لعلها الجسارة تختبيء في مهد جميل ؟ . نسي أنه رأى على شواطيء الصيف وفي الطرقات جرأة أكثر . في رحلة المساء الشتوية تسلم يدور بين الغرباء . كان لايرى إلا أنه كل يوم يزداد . عين وسط صدور عظيمة وعيون تائهة للرجال . ونساء يضحكن كثيرا ويختنين ويعثرن لكنهن لا يقلن ماذا يفعلن في المساء . كان يعرف أن ملقوس حزينة الليلة اثقل من أن تقال . ويعرف لم تستجيب الكثيرات منهن في زوايا المصنع لأطراف الرجال ! .

وتساءل لماذا لم ينزل البحر حتى الآن . ؟ كيف لم يعلمه زميله الذي أختفى السباحة . ؟ لماذا لم يعرف أن الناس قد غوى البحر في كثير من الأحيان ؟

قالت . .

ـــ حذه يمامة ؟

ـــ أصطاد الهام .

ـــ لكنها بيضة !

حملت . تركت السطح غاضبة . أي حماقة ياصياد الهام ؟ ظل شهراً لا يراها . أخلفت الإسكندرية بلا بهجتها الذي بدا أنها فقدته بمرأة أو برائحة لم يعد يذكرها . لكنها ظهرت بعد شهر شاحبة . رنا اليها حزينا وهي تستند على حافة سور السطح في تعب . لم تلتفت إليه رغم أنه كان يعرف أن رسائل عينيه الوادعة تصل اليها . جلست تنظر الى زوج حمام يتغازلان بمنقاريهما . ألقى اليهما حبا ولا يفترقان . أبتسمت لهما فابتسم لها ! التفتت اليه وهي تنهض فرآها تبكي . للبشر طبائع وأسرار حقاً . عرف ذلك جيدا . فعلت معرفته الجن الذي لم يحنّ عليه طبائع وأسرار حقاً . عرف ذلك جيدا . فعلت معرفته الجن الذي لم يحنّ عليه برود الفقر فعاملها بالحسرة وحبث الإنسى السقيم . لكنه تساءل كيف لملمه الفتاة البيضاء كالشمعة ، الهشة كعود الورد بفزعها موت يمامة ، أن تكون قاسية فتختفي شهرا ، وهي تعرف أنه ما أن بالهام إلا ليجد طريقا ؟ وتعرف أيضا أن قيثه الزاهدين خاليان من الخبث . بل مليئان بوداعة وسكر الانسان في حضرة السلم ! لكن من يشأ الصيد يالحمس عذرا للفريسة ويجتد شباكه ! .

○○ قال له العجوز مرة .

ـــ لايصنع الشاي مثلي إلا من عبر الدنيا وعرف الناس !
كاد يضحك لكنه جاري الرجل فتساءل .
ـــ هل عشت كثيرا في الصحراء .
استلقى العجوز على الأرض . أشار لصياد الحمام أن يفعل مثله .
ـــ عمري ـــ وعقد كفيه تحت رأسه كشاب نشط ـــ وأين ؟ . في فوكه . هل سمعت عنها . إنها بعد العلمين بقليل . هل تعرف العلمين ؟ أحكي لك . انكم لم تروا شيئا من الدنيا .

لم يكن العجوز ينتظر اجابة من صياد الحمام . كانت شهور طويلة مضت على معرفتهما لم يتحدثا فيها عن كل شيء يريده العجوز . بدا مثل قمقم فتح فجأة ولا قبل لاحد بغلقه لأن الجني الذي خرج منه سرق خاتم الأسرار ! جعل العجوز يحكي بلا توقف .

كان صياد الحمام متألما كأنما العصا التي هوت فوق رأس عمه سقطت فوق رأسه هو مع كلمات العجوز الأخيرة . تلك عن فشاوة الكلب لكن فتحت طريقا وحيدا وراء سراب . علام تتقلب كرة الأيام ، لماذا ياعجوز ؟ ياطفل ؟ . هل تعرف أن صياد الحمام رأى بحر الاسكندرية ولم ينزله ؟ . كيف يعبر الانسان الدنيا أكثر من ذلك ؟. رأى أن لا يجرح الرجل الطيب . فليسلم بأنه ما رأى ، لتسمع
ـــ كان هتلر سابق في الدنيا . وتشرشل يلعب بالعصا لأن الالمان هاجموا الروس . وحدثت طارة فوق فوكة والوقت ليل . جعلت القنابل وجه السماء أحمر والأرض صارت قاصفة فرن . جرينا من فوكة الى العلمين ولاندري . أكثر من ثلاثين كيلو ولم نتعثر . لم نتعب .
ـــ هذا غير معقول . !

لم يرغب صياد الحمام أن يقاطعه . لكنه لم يصدق بالفعل . قال العجوز بوداعة شديدة .

ـــ لماذا ؟ . كان ذلك عام ١٩٤٢ . فلماذا لا يكون معقولا ؟

لم يعلق صياد الحمام .

ـــ في زمنكم كل شيء معقول . هل سمعت عن الذين جروا من العريش الى السويس ؟

ـــ هذا أيضا غير معقول .

قال العجوز جادا .

ـــ اذن نصف المسافة معقول . ونصف المسافة من العريش الى السويس أكثر من المسافة من تركة الى العلمين . إنني اعرف ذلك جيدا من عمل .

ـــ هل عملت في العريش أيضا ؟

قال العجوز ناقد الصبر .

ـــ أسمع ولا تقاطع .

أبتسم صياد الحمام . بدا متأدبا . فجأة قال العجوز .

ـــ هل تعرف أني مثلك لا أصدق ؟

ـــ ألم أقل لك .؟

ـــ أتقصد اننا جرينا من العريش الى السويس ؟

صمت العجوز . قال صياد الحمام .

ـــ لقد جرينا مرة وجروا مرة .

ـــ أجل يا ولدي . لكن أحدنا لم يقل انهم جروا !

وعاد الى الصمت من جديد . اعاده صياد الحمام الى حديثه الأول .

ـــ ماذا تعلم في العلمين . ؟

استجمع العجوز نفسه .

ـــ وجدنا قطارا يتحرك الى الاسكندرية فقفزنا فيه . كنا أربعة أو خمسة . لاأذكر الآن . فلز كل منا في العربة الأقرب اليه . وكان السائق هنديا .

— هندي يعمل في السكة الحديد . ؟
نفد صبر العجوز مرة أخرى .
— بولدي لا تقاطعني . كان هذا عام « ١٩٤٢ » . أحضر الإنجليز جيوشا من كل الدنيا . استراليا ونيوزيلاند وأفريكان أيضا لهم ذيول . ألم يقل لك أبوك شيئا عن هذا ؟ . ألم يكن أكبر منك سنا . ؟!

ضحك صياد الجمام عاليا .
— ثم إني قلت لك أن الجنود علموني كيف امسك الثعابين . كان هناك ثعابين كثيرة في تلك الأيام .

وأكمل العجوز حكايته الغريبة . السائق الهندي كان أكثر جنونا من الطائرات الايطالية والألمانية . العجوز تابع في العربة التي خلف الماكينة مباشرة . لحقت الطائرات بالقطار . كانت القنبلة تسقط فوق العربة فتفصلها عن باقية العربات . تشعل فيها النار وتطير القضبان والفلنكات والزلط مشتعلة متصادمة في الظلام . يظل القطار مسرعا يسابق الطائرات . بدا كأن الأمر محسوب . قنبلة قنبلة وتفصل العربات عربة عربة فتشتعل وما تحتها . في النهاية لم يبق غير الماكينة والعربة التي بها العجوز . وكأن السائق الهندي كان يعرف أن للعجوز أصدقاءا من الجنود الهنود ، صمم على أن لا تلحق الطائرات بهما . لكن الطائرات ظلت تطاردهما . العجوز يرى سقوط القنابل خلف العربة والأرض تنفجر . يشتعل الظلام ثم يعود فيشتعل . ظل متوقعا سقوط قنبلة في أي وقت فوق عربته أو فوق القطار . بل تمنى ذلك ليتهي التوقع المرعب .
— هل جربت ذلك بولدي ؟
كان العجوز مغمضا عينيه .
— إنه وضع صعب .
— ربما لا تصدق . ؟
صمت صياد الجمام قليلا . قال .

ـــ إنني أصدق كل شيء .
قام العجوز ليضع كوز الشاى الأسود فوق النار بعد أن ألقى حابه بعيدا ، وملأه بماء وسكر وشاى معا . اعتدل صياد الحمام . جعل ينظف بندقيته .. لاحظ بقايا تقل الشاى التي ألقى بها العجوز . وهى عبارة عن كرات بنية قاتمة في صف واحد فوق الأرض . عاد العجوز ليجلس ويقول :
ـــ كنت اتوقع أن يقف القطار في الاسكندرية . لكن كانت هناك غارة شديدة على المدينة سمعت صوتها والقطار يدور حولها . بل رأيت اللهب يرتفع من قلب المدينة . إنها غارة مشهورة في الاسكندرية أسمها غارة الست ساعات . الليلة كلها كانت مشهورة . ولما رأيت أبراج الحمام وسط الليل ادركت أن السكة فتحت للقطار الى القاهرة . قررت النزول في كفر الزيات . فهي قريبة منها . هل تعرف كفر الزيات ؟

ماذا يفعل به العجوز ؟ فكر صياد الحمام . لم يشأ أن يجيبه . والأيام ، وربما لشهور بعد ذلك فكر صياد الحمام كيف امضى العجوز الوقت تحت القنابل حتى ابتعد عن الاسكندرية . وعلى قدر ما رأى من ضعف البشر فإن الوقت الذي امضاه العجوز منتظرا موته تحت الغارة جعله لا يصدق أن الانسان كائن يمكن قهره . وفي يوم شتوي دافىء اتسعت فيه الشمس وجلست مرتاحة فوق الأرض ، أحس صياد الحمام أن المنطقة الواسعة ذات الأرض السوداء والعربات القاتمة والأرصفة القذرة ، صارت بيضاء تعكس بهاء النور ، وتدفع العيون الى الاتساع بامتلاك الاسرار . فكر أن العجوز الذي يتحدث عن عبث الزمان لا يسخر منه أو يقصد بضايقه . ربما الأمر عكس ذلك تماما . ربما يتمنى لو لم ير شيئا مما عبر . أو لعله يحمد لصياد الحمام النجاة . في عصر ذلك اليوم سأله .
ـــ لماذا سألتني ماهذا كنت أعرف كفر الزيات ؟
صمت العجوز قليلا . قال وهو يتراجع يستند الى جذع الشجرة .
ـــ هل ضايقتك . ؟

أدرك صياد الجام أن ما فكر فيه صحيح . قال .
ـــ لا .
قرر أن يحول الحديث لكن العجوز بادره قائلا .
ـــ إنها البلدة الوحيدة التي لم أعرفها رغم قرب الريف منها وصولي إلى السكة الحديد . ورغم ذلك أكرهها !
لم يعرف صياد الجام كيف يحول الحديث . صمت .
ـــ كان لي أخ ناشز يقول عنها دائما بلدة مرتة تقع على نصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية . فلا هي ألحقت بالبحر ولا النيل . حتى النيل يمر عليها مقطوع الذراع .

وصمت العجوز قليلا .
ـــ كان غريبا يكره كل ماهو نصف نصف . لم يكن يفهمه أحد من الأسرة .

إستمر العجوز يتحدث متقطعا . بدا كأنه لا يحدث أحدا بعينه . وصياد الجام الذي ظن أنه أبعد كثيرا عن الماضي كان يتراجع اليه .
ـــ كان أبي يعذبه كثيرا لشقاوته وهو صغير . مات أبي خطوع في حرب فلسطين وعمره ثمان عشرة سنة . عاد برصاصة مستقرة جوار القلب ويؤثر تحدثا في السياسة .
ـــ .....
ـــ تطوع مع الفدائيين في حرب القناة وعاد برصاصة في فخذه ، وقال أن النحاس باشا صار مثله يكره كل ماهو نصف نصف . هل تذكر النحاس باشا . آه . كنت صغيرا بالولدي .

أحس صياد الجام بالعطش لماء بارد . لاحظ أن البير الكبير القائم إمام أحد الأكشاك الخشبية الثلاثة قد سقط غطاءه جواره ؛ وفكر أنهم لابد أهملوه هنا

الشتاء رغم إنه جاء دافئا .
ـ صار مدرسا فقلنا أن المياه ستغلمه والزواج ، لكنه تطوع في معركة بورسعيد وعاد مصابا أيضا .

وحين قال صياد اليمام لنفسه ، إن اللاعب الذي يمسك بخيوط الأيام ، لا يمكن أن يجعلها تتقاتل على هذا النحو العنيف ، قال العجوز .
ـ جاءتني زوجته يوما وقالت إنه اختفى .
رأى صياد اليمام أمامه لأول مرة ، وجها هرما عزقا يبكي بدموع شحيحة . حاول العجوز أن لا تسقط كوب الشاى من يده المرتعشة ، وتبع بعد أن أمسكها بيديه . قال .
ـ قامت بالبحث عنه يومان بعد ذلك . لابد أنه لو ظل حيا لاشترك في احداها أو فيهما .
كان أبى يقول إنه لن يتوه إلا أن يُقتل .

صمتا طويلا في ذلك اليوم . تسللت الرؤية الى الفضاء من حولهما . أقترب الليل بسرعة . قال العجوز وصياد اليمام يرتشف على الرصيف .
ـ تعرف ما أجمل شيء ؟
لم يرد .
ـ سطح القنديل . إنني حين اصعد فوق السيمافور لأغير زيت القنديل أضع خدي على زجاجه وارتاح . أجمل . كثيرا مالمت واقفا على السلم وعضضت السيمافور وخدي على زجاج قنديله البارد الرطب .

مرت الأيام ولم تنقطع حكايات العجوز ، رغم أنها كثيرا ما حركت ماء نقيا حارقا ، إلا أن العجوز والشجرة كانا عطشا حلوا .

حاول صياد الحمام أكثر من مرة أن يغني يومه دون المرور على العجوز فلم يستطع . كان يدور في المنطقة ويدور ، يعد نفسه قبل أن ينصرف اليوم ماضيا الى الشجرة . في كل مرة يجد العجوز جالسا تحتها مهما اختلف الموعد . كثيرا ما يتردد في الحديث لأنه يخشى أن يهيج ، إذا تحدث عن أي شيء ذكرى شجية عند العجوز عرض الحياة . لكنه كان يتحدث ويسأل . صار العجوز لا يصمت ولا يبدو على وجهه أسى . بل يضحك ويمسك يديه كطفل .

قال إنه نسي أمر زوجته منذ أنجبت الحرب العالمية الثانية . لقد امضى الحرب في تركة حارسا على خزان مياه ضخم بناه الخلفاء تحت الأرض . وليلة الغارة الشهيرة قفز من القطار عند محطة كفر الزيات . كان القطار لا يقف والسائق العنيد يدا يريد أن يلحق بالآخرة ! . أصيب العجوز وعولج أربعين يوما في طنطا ، وعاد الى العمل حتى تنهي الحرب . وصف لصياد الحمام الأعداد الهائلة من القتلى بعد معركة العلمين . كم رأسا وجدها في خرائها بلا اجساد ، وكم قدما في حذائها بلا ساق . وكم خاض في دم متخثر . بعد الحرب عمل فراشا في القطارات ينظفها في المحطات الأخيرة ، ويجلس وحيدا وسط المقاعد الصفراء وتحت الضوء الشحيح يغني : يا دوبار قل لي ، لعبد الوهاب ترك وصار عطشجيا يمون القطارات بالفحم والمياه ويشعل النار . تغيرت القطارات وجاءت غيرها لا تعمل بالفحم فصار « عموجيا » يقوم بالعمل على التحويلات الأرضية . وانتهى به الأمر « قناديلجي » يشعل القناديل ويغير زيتها وفتائلها ويرتاح على زجاجها . في رحلته الطويلة كان يزور زوجته كل شهر أو شهرين . بعد أن استقر في الاسكندرية تذكر زوجته فاحضرها . هوى ابنه الصيد فجأة ومات . عادت زوجته الى القرية . كرهت الاسكندرية ولم تر بحرها . زارها مرات قليلة لكنها صارت زاهدة في الكلام . بدت قد اعتزلت الدنيا والناس . لماذا اذن يسافر اليها؟ . كان العجوز يضحك . إنه راض عن العيش في هذا المكان مع الثعابين وينتظر موته

تحت الشجرة .

○ ○ ○

اليوم أمضى العجوز والشجرة والأكشاك الثلاثة . يسأل صياد الحمام نفسه والكشك الحبيث لم يرتفع رأسه بعد . يمكن أن يحدث هذا في ليلة واحدة . تمطي « قمر » و« الشرطي » و« العجوز » والأكشاك جميعا . الانسان الخبيث يمكنه أن يفعل ذلك . وربما يغير الله وجه الأرض في لحظة بشاء . إن الذي جعل الأيام الخمسة تمضي بلا صيد لقادر أن يجعل الأرصفة تصعد فوق السماء . لكن إن تمضي الشجرة العظيمة فهذا هو اللغز رغم بساطته . الأشجار لا تدخل في حساب الانتقام . إنها مواقل راحة وصدر حنان . الله يخلق الانسان ليأخذه . الحياة غزل مقيت بينهما حقا . لكن صياد الحمام لم يسمع أو يقرأ أن الله يغازل الأشجار ! . وشجرة التوت الوادعة العجوز لا قبل لإنسان بقطعها . فحسبها وقمرها يهددان ثورة الانتقام .

يدرك صياد الحمام أنه ما رأى اليوم غير أرصفة ميتة ، وبضاعة ملقاة متباعدة ، وقضبانا سوداء متشابكة ، وأسلاكا متهدلة ، وبقعا من المازوت الأسود سقطت من سحب حمقاء . وإنه لم يشاهد حتى عامل مديرية واحد أو وحيد يمشي سليما أو يعرج بكفه المقاتل ! . لكنه لايصدق أن هذه علامات موت ! الموت لا يأتي بشعا هكذا إلا بإصرار . وصياد الحمام ما عذل أحدا أو إله !.آه .
بالأمس قال العجوز .
ـــ أراك صاحبت الشرطي مؤخرا .
ـــ لكني لا أحبه مثلما أحبك .
ضحك العجوز وقال .
ـــ تحب قمر ؟

ابتسم صياد الحمام . استطرد العجوز .
ـ الشرطي « مومي » هذا لغز كبير .
صمت صياد الحمام الذي لم يكن قد سأل الشرطي عن اسمه . يريد أن يسمع فقط . عرف كيف يحدث العجوز .
ـ يقولون إنه منذ ثلاثين عاماً وهو يجلس في الكشك . ولا يفعل هنا الا خيبث !

دام صياد الحمام الصمت .
ـ يريد أن يتزوج من « قمر » . كثيرا ماعاد الى المنطقة بالليل ليحدثها في ذلك . في كل مرة ترفض فيجلس ويبكي أمام الكشك .
دهش صياد الحمام . قال
ـ كل ليلة يفعل هذا . ؟
ـ بلاتزال . لم يكف ولم يمل . لابد أنه بيت النية على غدر .
صمت صياد الحمام قليلا . قال
ـ إنه لم يذكر لي شيئا عنك . ألم تتحدث معه من قبل ؟
قال العجوز على الفور .
ـ لماذا التحدث معه ؟
لم يفهم صياد الحمام . صمت وفكر في القيام . قال العجوز مبافتاً .
ـ مازلت مؤملا في صيد الحمام ؟
لم يرد .
ـ أنت بالتأكيد لا تعرف عدد الحمام الذي اصطدته ؟ إنني مازلت اعرف كم كان عدد مركبات الانجليز في نوكة واعرف كم يوما صمت ليلا أو نهارا !!! .

للمرة الثالثة كان يسمع السؤال . ترك العجوز متعجبا من الجميع . اتجه الى رصيف القصب حيث جوله الأخيرة . لم يكن يدري أنه سيسمع السؤال

هناك أيضا . والآن يتساءل هل كان لهذا السؤال من معنى لا يفهمه ؟ لكن العصافير تصخب ورأس الثعبان يظهر ، تخرج حية الرش الى مدخلها الذي انتظره كثيرا . نحس بالعرق قد بلل ملابسه رغم ظل المكان وبرودته .

○ ○ يريد أن ينام في مكانه . يود لو يتحول الرصيف الى عجينة دافئة . يرى مظلة العصافير تطير متفرقة ثم تعود متتابعة . انزعها صوت انطلاق حية الرش . لكنها تطير من جديد ولا يجد العصفور الصغير معها . إنه لا يستطيع الطيران . وربما مات . لكن العصافير التي كانت تصرخ من اجله لم تغسله . لماذا إذن تجمعت ؟ لماذا قتل الثعبان ؟ . أي حماقة يرتكبها الجميع .

لم يشأ أن ينهض ليقترب من الثعبان الميت . يدرك أنه سيرى رأسه ملطخا بالدم ، وربما السم . وسيرى طوابير النمل تأتي من كل الجهات لترصف فوق الثعبان . نمل صغير قذر يظل قابعا في شقوق بعيدة لا تلفت الانظار ، وربما لا تخطر ببال أحد ، لكنه يظهر بعد أن ينتهي كل شيء ليكون هو الفائز بالغنيمة ، و يمشي منفردا أو متجمعا مزهوا بنفسه غيلاً أعين الأغبياء ويسد الطريق . وصياد الهام لا يريد أن يقتلها . لكن هل سيظل منبطحا هكذا ؟ . هل حقا سينام ؟ . إن الصوت الفاتن ، القاهر ، يسقط فوق رأسه تصحبه ضحكة مجلجلة واهتزاز في الكون .

ـــ تصطاد الثعابين ؟

كان قد بدأ يتذكر أن طفله في الصباح لم يطلب منه أن يصحبه ليصطاد العصافير . قال فقط « خذني معك أصطاد » . لكن الذي قال « أنت كبير تصطاد الهام وأنا صغير اصطاد العصافير » كان صوته أجمل ووجهه ابهى . صورته الآن تجري في الفضاء .

يحس أن جسمه صار ثقيلا لا قبل لروحه على حمله ! . الخدعة ليست في الذي علمه الصياد واختفى . ولا فيمن اختفوا بعد أن سألوه السؤال الغامض . الآن يدرك صياد اليمام أو يكاد . لكن الصوت سرعان ما يهرب من أذنيه . الصورة البهية تضيع من عينيه . لايسمع إلا الصوت الجميل العاهر يتردد من بعيد كأنه قادم من فوق السقف .

○ ○ ○

فلم مستندا على يده اليسرى بينما كانت تضحك . علق البندقية وأخلاه حول كتفه . جعل ينظف ثيابه .

ـــ أنت . ماذا جاء بك اليوم ؟

ـــ إنني اجيء كل يوم . وكل يوم أجمع الحبوب المبعثرة فوق الأرصفة .

ـــ أكنت فوق رصيف القصب . ؟

ـــ شاهدتك وأنا على رصيف الحبوب .

قال وهو يبتسم .

ـــ هل أعلك معك ؟

ضحكت .

ـــ إننا نقترب من الليل . إنها مع شرطي الرصيف .

لم يكن في حاجة الى ما يفعله معها مظلما هو اليوم . قالت وهي ترتدي سرالها .

ـــ سأراك غداً .

كانت عربة السكة الحديد معتمة حولهما . دائما هي كذلك . إنه لاينسى وقع ضربات اقدامهما حين يتهاوى الكون ، وتتساقط حجب الغيب وتنكشف جدران العربة عن دنيا بيضاء بيضاء . لكن وقع الضربات لم يفزعهما قط . ليس في الكون ثمة أحد يسمع . وهما لايسمعان إلا بعد أن يتيها . ويسمعان صدى

بعيدا جميلا . وجهها الحبري يضيء أمام عينيه . يتراجع وجه زوجه الطيب . لم يعد كما رآها حين صعدت فوق السطح بعد طول انقطاع . كانت متألقة سعيدة تكاد ترقص فاندفع قائلا .

ـــ هل تقبلين الاعتذار ؟

أشرقت تقابل ضاحكة . قالت .

ـــ من أنت ؟

وعضت شفتها السفلى فكاد يسألها من أنت ؟ لكنه قال .

ـــ صياد يمام .

ضحكت حتى خالها تغازل الكون السابع في جنة النور . أوشك أن يضحك فأمسك . وجهه ليس مثل وجهها لا بهاء .

ـــ فقط ؟

قالت واقتربت أكثر . قال .

ـــ أعمل قبانيا . لكني صياد يمام .

ـــ صيد اليمام ليس عملا .

قالت ذلك ثم وضعت سبابتها على شفتيها خجلى .

ـــ لم ؟

أغمضت عينيها . حقا لم ؟ قالت .

ـــ لماذا أردت الاعتذار ؟

أزاحك . غيرت الموضوع فجأة . هل هي حقا تعرف طريقها . أم أنها الاسكندرية تطبع ابناءها بالفرح والانطلاق ؟

ـــ لا أعرف . لكن يبدو أنك غاضبة مني .

ـــ أنا لا أغضب من أحد .

ولم يغضب . صارت زوجته . لم تغضب . وحتى الآن لا يبدو عليها غضب . تراجعت عيناها كما تراجعت عيناه . ذبل وجهها كما ذبل وجهه . خمسة عشر عاما شيء كثير حقا على طائرين . لكن ليست السنون وحدها هي التي باعدت

بينهما . لقد صارت أكثر طيبة ووداعة . لكنه يعرف الآن أنها تود من الدنيا الانسحاب . تماما كملاك احمق صدق أن الأرض أجمل من السماء . لكن كيف ظل هو مناوئا . تعرف زوجته مالا يعرفه . ربما رأت مالم يره . لماذا لم يسألها من قبل ؟ لماذا ينسى كلما قرر . ؟ . إنه لا يصدق أن هند جامعة الحبوب الجميلة صارت مرفأه رغم أنه صار يسعى اليها في العام الأخير كثيرا . كانت صغيرة حين رآها في كشك الشاي أول مرة . كان ذلك منذ عشر سنوات . يزعم لنفسه أنه أخذ بجمالها البريء . وجهها الخمري وعينيها اللوزتين اللتين لا يعرف أسوداوين أم عسليتين . ؟ يعرف فقط انهما ماكرتين كعيون الأطفال . يزعم أن ملابسها الواسعة الممزقة كانت جميلة . سألها قالت أنها جاءت مع أبيها وأمها من الصعيد في رحلة لم تفهمها حتى بعد أن كبرت . أن اباها الذي كان مخفورا فوق رصيف القصب بني لهما كشكا تحت كوبري التاريخ عاشوا فيه ثلاثة ، حتى سمعته يقول لأمها إنه ضجر من كل شيء . قالت إنها وهي صغيرة كانت تصعد من تحت الكوبري لشراء شيء فتراه يزن القطن ، ولم تكن تعرف أنها ستقابله بعد ذلك . وإنها صعدت مرة ولم تجده ، ثم لم تعد تراه كل يوم فلم تعد تنظر الى من يزن القطن . لم يصدق . قالت لماذا لا يصدق ؟ . لم يرد . صارت ناضجة تملأ عينيه وتحرك روحه . قال إنه كان ينظر اليها حين تذهب مع ابيها الى كشك « تمر » يشفق عليها . لكنه لم يفكر فيها حتى فوجيء بها كبرت هكذا . قالت إنها سمعت أباها يقول لأمها أن رحلته للاسكندرية خابت . لقد جرب أن يمسح الأحذية فطاردته الشرطة ، وكثر الوحل حتى بشت الناس من مسح الأحذية . جرب أن يبيع الكعك أمام المدارس فخطف منه الأطفال أكثر مما باع . أن يبيع الجبن والمش جوار الكوبري فضربه الباعة القدامى ، رغم أنه يكمن تحت الكوبري ، وهم لا يعرف أحد أين يعيشون . إن صحته ضعيفة . وربما هو الصعيدي الوحيد في الاسكندرية الذي لايستطيع العمل في الخرسان . وحراسة القصب موسمية ، وتجار القصب يمصون الدم قبل السكر . ثم سمعته بعد ذلك يتحدث عن السفن التي تأتي الى الميناء ، كيف سيحمل فوقها وكيف أنها مصدر

مال وهدايا كبير . ثم أنه وسيم يستطيع أن يخلع الجلباب ويرتدي بدلة العمال الزرقاء . ولما حدثته امها عن الغياب ، قال إن رحلات السفن قصيرة مهما طالت لأن فرحة اللقاء الدائمة تنسي كل شيء .

ـــ ألم يعد أبوك بعد ؟

كان لابد لها أن تتصرف . سألها وهو يعرف الأجابة . وإنها لم تعد تتحدث عنه منذ أكثر من العام . وهو في الوقت الذي رآها تحاول أن تنسى كان يذكر أباها . قالت .

ـــ أما زلت تذكر . ؟

فكر كيف إنه على طول معرفته بها لم يرها من قبل . لابد انها تنسى مع الشرطي احزانا كثيرة . لابنبغي أن يكون ظالما الى النهاية . لن يسألها عن ذلك وسيحترم . لقد حمل المسكين سرها ولم يخنها . وحتى الآن لا يعرف لماذا فعل ذلك . ربما لأن صياد الحمام دائم البحث فوق الأرض عن أشياء طائرة في الفضاء !

○ ○ حين تحدث لأول مرة مع أحد رواد البار ضحك الجالسون جميعا . قال أكثر من واحد « من أنت ياأخ . هل أنت معنا في البار ؟ » . كان أصحاب ثلاثة وجوه يرتاح الى رؤيتها هم الذين يفرضون الضحك والكلام . أحدهم هو الذي خاطبه . الفتى الجرسون .

ـــ لا مؤاخذة ياجماعة . البيك دائما محترم . أنا شبت واليك محترم منذ أيام الشباب !

ادرك الجرسون أنه صب الزيت على النار دون أن يدري ، فاستغرق في الضحك وازداد الحرج . كان يمكن لصياد الحمام أن يضحك . أن يحرج . لكنه وجد نفسه يضحك . أمر مثير للضحك حقا أن يتحدث بعد السنين الطويلة الصامته . وكيف تحدث . لقد عمي .

ـــ حضرتك تعمل في الميناء ؟
وفوجيء بالصخر يسقط من فوق الجبل . انخفض الضحك كلها وتردد أصوات السعال في أكثر من ناحية ، بينما قال الشخص الذي همس اليه .
ـــ لا . الحقيقة الميناء تعمل فينا جميعا !
وقام ضاحكا ضاربا المنضدة بيده يخاطب الجالسين .
ـــ يسألني إذا كنت اعمل في الميناء . أخبروا عرفت أني الاسكندرية لا تعرفني .

عاد الضحك والضرب يملأ المكان ! . البعض صار يسعل بقوة والبعض يبصق فوق الأرض . قال نفس الشخص الذي كان متوسط العمر مثل رفيقيه .
ـــ أخبرونا نطق قايتباى !
إذن فهم يسمونه قايتباى وهو لايدري . طوال السنين الماضية كان مثل القلعة الرابضة عند الطرف الشرقي من المدينة لا يعرف أحد لها عملا . وقال أحد الثلاثة .
ـــ مشروبات قايتباى كلها عندي .
ـــ لا عندي وسيدي العدوي .
ـــ لا . البار كله يشرب على حسابي .
قال الثلاثة ثم نهضوا وانضموا بالجالسين حول منضدة صياد الحمام ، وتطلعوا اليه جالسين في قمع ضحكاتهم .
ـــ لا مؤاخذة . ليس فينا من غضب .
كان يشعر بوجهه الذي لايراه ، يتنقل بين الألوان ساخنا كما يتنقل القطار بين أصنفة اسلاك التليفونات . لكنهم توجسوا به يفجر ضاحكا مرة أخرى فعادوا يضحكون بينما هدأ بقية الرواد وانشغلوا عنهم .

ـــ حقيقة ماذا تقول ؟ أنا خدامك كمال .
تردد صياد الحمام قليلا ثم قال .

ـــ فقط كنت أسأل ما إذا كنت تعمل في الميناء ؟
قال كمال على الفور .
ـــ أنا أعمل في الميناء . سلامة يعمل في الميناء . مصطفى يعمل في الميناء ـــ وبعد لحظة ـــ كلنا هنا موحد القطرين !
عادوا يضحكون من جديد وصياد الحمام يضحك معهم .

قال سلامة .
ـــ كمال تلميذ أزهري . كان المفروض أن يجلس في الجامع فجلس على ظهر البحر .

بدا إنه لم يعد ممكنا الضحك أكثر . قال كمال .
ـــ وأنت ؟
ـــ هل . صياد حمام .
لاحظ أن هذه أول مرة يقول فيها اسمه لأحد بعد أن ترك عمله في مكاتب القطن .
قال كمال .
ـــ هل لن يهنأ . سنسميك صياد الحمام . هذا أجمل .
قال .
ـــ كنت أريد أن أعرف كيف تسافرون ؟

○ ○ ○

عرف أن هناك أكثر من شركة ملاحة ومكتب لتنظيم رحلات العاملين المصريين على السفن . إن كل سفينة تأتي أو ترحل تسجل رحلتها وأسماء المصريين الذين يعملون فوقها . إنه لا يمكن وقوع خطأ إلا إذا أراد أحد أن يهرب من البلاد . المهم أنه يبحث عن قريب له من الصعيد اسمه « مرعي أبو الذهب »

خرج منذ ثلاثة أعوام ليعمل على سفينة لم يقل لأحد عن اسمها أو رحلتها أو جنسيتها ، وحتى الآن لم يعد . وعدوه بالمساعدة ، لكنهم اختفوا .

حين ظهروا من جديد ، قالوا أن الباخرة التي كانوا يعملون فوقها ، غرقت في البحر الأسود بعد عاصفة سوداء ، وإنهم انتشلوا الى ميناء أوديسا بأعجوبة . من هناك انتقلوا الى العمل فوق باخرة ايطالية قطعت رحلة طويلة الى بنما . هذا هو سر اختفائهم لمدة عام . وجعلوا يضحكون . سألوه إذا كان قريبه قد عاد فطلب منهم مواصلة البحث . أمضوا أسبوعين في الاسكندرية أخبروه خلالهما أنهم يبحثون في سجلات الشركات والتوكيلات الملاحية عن قريبه هنا لكنهم لم يصلوا إلى شيء . قالوا إنه لم يسافر على أي سفينه . لم يكن هو يخبر القناه بشيء مما يفعله . وحتى الآن لم يخبرها . ولا يعرف لماذا كان يريد أن يعيد هذا الغائب من وراء الأفق .

بعد شهر عاد مصطفى وقال . أخبراه أن « سلامة » انتقل للعمل فوق سفينه لبنانية . سلامة يحب بيروت دون موانئ الدنيا كلها . أنهما سألا عن قريبه المقاولين الذين يعملون في شحن وتفريغ السفن . وهكذا يكون البحث قد تم عنه في البحر والبر ولم يُعثر له على أثر .
لم يعلق .

بعد شهر عاد مصطفى وحده الى البار . أخبرا أن سلامة لم يعد حتى الآن من لبنان . ضربت الزوارق الاسرائيلية السفينه في ميناء صيدا . المصري الوحيد الذي كان على السفينة اللبنانية غير سلامة عاد ، وقال أن الضرب تم وسلامة على الشاطىء .
قال صياد البحار .
ـ لعله يعود بعد فترة .

قال مصطفى .

ـــ إننا ننتظر . لقد حفرناه من خط لبنان .

قال صياد الحمام .

ـــ أين كمال . ؟

قال مصطفى .

ـــ ألم تقرأ في الصحف . ؟

ـــ لا . ماذا حدث .؟

ـــ إنه المصري الذي قتل ايطاليا في نابولي .

وضع صياد الحمام كأس الروح ونظر داخله . ماذا يجري ؟ تتحطم السفينة فوق الماء وسلامه فوق الأرض ولا يعود ، بينما يعود من كان بالسفينة وقت الضرب . وكمال يقتل ايطاليا في نابولي ؟ يحدث كل هذا لأنه سأل عن رجل تاه أو اختفى . لماذا لم يظل صامتا في البار ؟ .

قال شارداً .

ـــ كيف . ؟

وصار البار الصغير مشحونا من الخلاء المفرغ من الهواء ، خانقا وقابضا . بدأت أشياء غريبة مثل النمل وليست مثل النمل ، إنه لا يتركها لحاما ، تخرج من أعلى رأسه ، وهواء ثقيل أسود يملأ فراغ الرأس .

حكى مصطفى كيف قابل كمال صديقا ايرلنديا في نابولي يعمل على باخرة انجليزية فقرر أن يترك السفينة الايطالية ويعمل مع صديقه الايرلندي الذي كان يعمل معه من قبل منذ عشر سنوات . لكن القبطان الايطالي رفض أن يتركه إلا في مصر حين تعود السفينة مرة أخرى . كمال كهربائي نادر له سمعته فوق السفن ويستطيع ترك أي سفينة ليعمل على غيرها فورا وكثيرا ماتعمل ذلك من قبل . وإذا حدث ورفض قبطان اعطائه جواز السفر وشريكه كان ـــ كمال ـــ يهرب .« إذا قبض عليّ سيعيدونني إلى السفينة إن ظلت في الميناء . أو الى السفارة المصرية .

في الحالتين لن أخسر » . هكذا يقول دائما ، ولقد هرب أكثر من مرة فشل في بعضها ونجح في الاخرى . كان يستطيع استخراج جواز سفر في أي وقت . علاقاته الطيبة مع سلطات الميناء في الاسكندرية سهلت له ذلك . هداياه كثيرة وأن تسرب معظمها الى نساء شارع الحجازي .

هذه المرة هرب كمال . حذره مصطفى . « القبطان فرسان صقلي أعرج شرس لابد كان نص سفن في فرنس أو مالطة » قال كمال لمصطفى قبل أن ينزل الى المدينة التي عربد في أحد بارلها عربجة اسكندراني . « بعض مالطاش لازمة » قال مصطفى . انتهت العربجة بأن ضرب البارمان بزجاجة فوق رأسه لمات . لم يسمح القبطان لمصطفى أن ينزل الى المدينة ليتابع قضيه صديقه . « أنا لا أملك جرأة كمال . لكني لا أصدق أنه يقتل » . قال مصطفى .

عاد صياد الهام من الخلاء الطائل . في عودته واجهت عينيه عين شمس صغيرة حمراء حادة قاسية . عرق كثيرا بشكل ملفت للنظر . قال مصطفى ، — أخبرت سلطات الميناء فوجدتهم يعرفون القصه . عرفت أنها نشرت بالصحف .

لايعرف صياد الهام لماذا فكر أن يسأل عن أسرة صديقه . إنه لم يسأل أحدا عن أسرته منذ وصل الاسكندرية . كل ما عرفه من الذين عرفهم سألوه اليه دون أن يسألهم .

لا يعرف أيضا لماذا لم يسأل !! ترك البار ولم يعد لايام قليله . عاد فلم يجد مصطفى . لشهور لم يعد مصطفى . في كل مرة يحسبه الجرسون حزينا . « مازلت تسأل عن مصطفى » . يقول الجرسون . لا يعرف الجرسون سر جهامة صياد الهام . الحكايات باهته كلها والرواية في الأصل مهزله يدير وقائعها

الليل . آخر مرة كانت منذ أسابيع ، ليلة أن حدثه الشرطي عن الطفل الجميل الذي دهمه القطار .

لم يفكر صياد الجمام أن يخبر هند بشيء . تلقى حظا أن يأتيها بخبر . لم يتكلم بعده عن أبيها خوفا أو توقعا للفشل . أراد أن يكون صاحب مفاجأة سارة لاحد أي أحد . كان البحر مفاجأة .

○ ○ ○

قالت واجمة .

ـــ يبدو أن كلاً منا قد ارتاح إلى حياته .

لم يفهم . قالت مبتسمة .

ـــ ثم إنني أكبر وأصير جميلة .

ضحكت وهي تقترب منه . تعرف أنه حين يراها يرتبك ، منذ خمس سنوات حين شاهدها لأول مرة في كشك الشاي مع أبيها ، كانت جالسة القرفصاء حول كوم من حبوب القمح . انحسر جلبابها عن ساقيها فكشف جزءا من أعلى الركبتين السوداوين . « إنها ترتكز عليهما كثيرا » . قال في نفسه وهذا مرتبكا فأدركته . هذه المرة لم يرتبك . الغريب منها . أرادت أن تراجع . لم يحدث أن كان قريبا من قبل . إنه يهواها بحق . لكنه اليوم لم يتلعثم أو يرتعش . اقتربت علّه يعود طفلها ! قالت .

ـــ بكفي مره واحده . أمي في انتظاري .

ـــ ظلت انها مع الشرطي .

وجلبابها . قالت وهي ترفع سروالها الى وسطها . لم تخلعه هذه المره . تركته معلقا فوق احدى عقبيها .

ـ أنت اليوم غريب .
لم يعلق . قالت .
ـ أنت تعرف « طلبة » العجوز ؟
ـ وأجلس معه كل يوم . هل أسمه طلبة ؟
ضحكت .
ـ كيف إذن تجلس معه كل يوم ؟
لم يرد . أعجبه العجوز منذ قابل باسم الشرطي لأول مرة ، وها هي تجيء باسم العجوز الذي جلس معه أكثر من عام . لم يعد يدهش . قالت بعجل .
ـ ألم يقل لك شيئا ؟
ـ يتحدث معي في كل شيء . ماذا تعنين ؟
ـ يريد أن يتزوج أمي .
ضحك عاليا فتردد الصدى في العربة المظلمة كأنه طرقات المحاس في كهف .
قال :
ـ هل تعرفين موسى الشرطي ؟
ـ أجل .
ـ أخبرني اليوم طلبة العجوز أنه يريد أن يتزوج من أمي .
تعلقت بكتفيه كقطة . كانت صادقة حتى أنه سمع دقات قلبها وهي تقول .
ـ أريد أن أتزوجك .
برقت . وآها بمامة سعيدة . كاد يضحك فأحس بالأسف . قال .
ـ طلبه العجوز يقول أن قسر ترفض الزواج من موسى الشرطي .
تركت كتفيه . تراجعت . قالت كأنها تحدث نفسها
ـ أمي تقول أن أبي سيعود .
خرجا من العربة يفكر كلاهما في شيء يقوله للآخر قبل الفراق .
ـ هل تريني قاسيا ؟
قال فيما أنها لم تسمع لأنها قالت .

ـ إنك منذ سنوات لا تصطاد .
ـ لكني سأصطاد يوما .
قالت .
ـ هل تعرف كم يلزمه أصطادتها ؟
لم يكد يندهش للمرة الرابعة في يوم واحد حتى تابعت .
ـ إننا نحصي عدد حبات القمح والأرز قبل أن نبيعها كل ليلة . نحصيها حتى الصباح .

وضحكت وعاد اليوم الى ذهنه من أوله . كانت المصابيح المعلقة أسفل سقف الرصيف قد أضيئت فأدرك أن الليل قد دخل . لابد أن حوله ظلاما بعض . قالت وهي تبتعد .
ـ أنت صياد ماهر قتلت الثعبان من أول مره . سأراك غدا .
لم يرد . لم يعرف كيف فارقته ولا أي طريق سلكت . لماذا قالت سأراك غدا رغم فشله . ؟ قالتها مرتين ، وهي لم تقلها على طول ما عرفها من قبل مرة لم ظاهر الغد يكاد يحتضر ولم تظهر . لقد قتل الثعبان وبعض ولا يجدها وقفه جواره كما حدث أمس حين قتل الثعبان ؟ .
لا يسمع الآن صوتها العامر والكون لم يعد يهتز .

○ ○ ينظف ثوابه مما علق بها من تراب . يعلق الشلاله حول كتفه . يرفع بندقيته الى أعلى بالحركه الانفراديه . سيجدها بعد قليل . يقول لنفسه . يذكر أنه فوق رصيف القصب . دائما هي فوق رصيف الحبوب . أمس كانت صدفه . قتل ثعبانا اليوم يمسك بعصفور على نفس الرصيف ، وربما في نفس المكان . صدفة أيضا . أجل . أن يقتل ثعبانين في يومين متتاليين بنفس الطريقه صدفه . لا يمكن ان يكون صياد ثعابين . لكن العصافير في اليومين لم تحمل

العصفور الصغير اعداء صديقه أيضا !؟ فرق رصيف القصب كان يصطاد يوما كثيرا يهدهش . ذلك كان أيام الصيد . الآن يصطاد الثعابين ويقضي الجميع . تضيء مصابيح الرصيف فوقه فيعرف أن النهار يوشك على الذهاب . ماذا سيفعل في الظلام . وسط اليد بلا مصباح يعلقه فوق بندقيته . أي يوم هذا الذي انقضى بلا طعام أو شراب . بلا حديث . بلا بشر . هل احتفروا حقا الى الابد ؟ لايصدق حتى الآن أنه لم يرى أحدا . كيف نسي أن يأكل ما أعدته له زوجته ووضعته بالخلاء . آه منها وادعة العينين . تقول إنه لا يصطاد ، ولا تنسى أن تضع الطعام . تعانقه كشيء ثقيل وتنظر اليه بعينين دامعتين . أي عذاب ؟ . لماذا يكون على الصياد أن يتذكر دائما بالصبر ؟ لماذا يطول الصبر فيبدو كأنه مناط الحياء ؟

يهتز جسمه فيعرف أن البندقيه مهتز بين يديه . إنه يسعل . قالت أن البرد شديد . وهو يحس الآن حقا . ها هو جسمه يخذله . آن لصياد الحمام أن يستريح . آن لصياد الحمام أن يستريح . ضوء المصابيح الشاحب وهق هيئه . ينزل البندقية ويعلقها على كتفه . يخرج من الخلاء غطاء من الصوف للرأس والوجه معا ويرتديه . يسرع الخطى وهو يمسح المخاط المتصل من أنفه بمنديله . سيخرج من الباب الذي دخل منه أول مره . سيرى زحاما فوق كوبري الترعة وحوله من العربات والترام . في الشتاء لا ينتظم بحر الاسكندريه ولا تزهر ، في الصيف وجهها يشوه . لكنه لم يره رؤية حقة .. دائما خلف الاشياء . الصيد جعله في المؤخره . لعله ليس الصيد . لايريد أن يعرف فينفجر . شيء ما يؤلمه . يجعل أسنانه تضرس . يكاد يفجره . ليس البرد . ليس الحزن . كيف فاته أن يتبول ؟ كيف حبس البول كل هذا الوقت . لقد أحس بالرغبه في الضحى وانتبه الى احدى العربات . يتذكر الآن أنه لم يدخل العربه ولم يتبول . كيف تحمل الوخزات الحادة في الحالب ومجرى البول ولم يشعر بها ؟ عادته القديمه السيئه في أن يتبول في الخلاء هي سبب هذا الالم . أجل . كان رغم وجود دورة مياه فوق

السطح قرب غرفته يهوي النهار وسط الليل من أعلى السطح ، ويستمع لصوت اصطدام قطرات البول بأرض الشارع وهو يقطع نوم الليل ! . وهل طول المدن والقرى والطرق التي جرى فيها تبول فوق الأرض وسط الليل والنهار . تحت الشمس والقمر . رأى في الظلام بوله بارقا كالكهرمان . ورآه أبيض . ورآه أحمر . وكان يعرف أنه سيعاني من ذلك فيما بعد . انقذه الزواج حين خلت شقة في المنزل فاضطر لترك السطح . لكنه لم ينقطع عن عادته خلال الصيد .

يحجه بسرعة ليقفز من فوق رصيف القصب الذي أختفت من جانبيه العربات اليوم . يريد أن يصعد عربة قريبه بين الأرصفه . سيغلق بابها عليه ويتبول . لن يفعلها في الخلاء مرة أخرى .
يتراجع فزعا رافعا ذراعيه لا يدري إلا وهو ساقط فوق الأرض على ظهره . ليس هذا الذي وقف على صدره بقدميه ورفرف بجناحيه العريضين في وجهه وكاد ينقره في قمه بمامة . يتابعه الآن طائرا اسفل سقف الرصيف مبتعدا . يراه يعود مرة أخرى أسود جهما وفي سرعة يبدو منها أنه سينقض فوقه ليتم ما لم يفعله .

يقترب فإذا به ليس أسود ولا جهما . ينهض صياد الحمام بسرعة غير معط للدهشة عينا ولا شفة . على يقين الآن أن ما حدث ليس بمعجزه . الطائر بمامه ـــ بمامه تسبح تحت الرصيف ذاهبة آيبه . بمامه تفتح باب السرور . بمامه طال الشوق اليها أو طال شوقها فعادت جائعة بعد الضنى . إنها لتسبق بماما سيأتي بسبق الأيام . يضحك وينزل البندقيه المعلقة حول كتفه . تتفجر دموعه وتنهال ساخنة تغرق وجهه وتختلط بمخاطه وهو يضع بالبندقيه حبة الرش بعد أن فرغت حين قتل الثعبان . يتابع الحمامه بخيوط سلكيه تخرج من عينيه . يمسح مخاطه ودموعه من فوق وجهه وشفتيه . يجري خلف الحمامه ناظرا اليها . يتمنى أن تعود . يريد أن يكون غيبها لحظة واحده . ينسى البول والألم . تسقط الخلاء فيتركها . يريد الحمامة وحده فرصته الوحيده ليلزم صوت الريح وفراغ المكان . لو فاز

بها سجينا لقصر وعند والشرطي والعجوز . سيعودون . ستبكي زوجته إذ تعود البيجه لعيني زوجها . خمسة أعوام من الحبيه ليست بالأمر السهل على رجل في قلبه دم ساخن . صياد لا يعرف إلا الصيد . صياد لايريد أن ينظر الى قدميه .

تقف الحمامة أسفل السقف وهو بعد لم يصل اليها . مايكاد يقترب حتى تطير بقوة فارة جناحيها حائده فتصيح خلفه . باغته فلم ييأس . لايريد الآن إلا أن يبقي الوميض الاخير للنهار قليلا . نور مصابيح السقف عجوز وهو لم يحضر معه مصباحا يهديه . تقف الحمامه من جديد وهو يلهث للحاق بها . يقرر أن يضرب اليها طائرة لو عادت . فليركز كل حواسه في أن يطلق بندقيته في اللحظة التي لا يعرفها الزمن ، ولا يدركها الظلام ! ولن يفشل أو تخونه قدرته . يقف ناظرا الى الحمامه . تحط بترقب تمر . الحمامه اللعينه لا تعود هذه المره . تطير الى ناحية رصيف الباشا . يتابعها عسرا . هل يجري وراءها عبر القضبان والارصفه . والآن ؟ لكنه لن يستطيع تركها . إذا لم يرجع بها لن يأتي أبدا بحمام . آه . ماذا يريد أن تفعل به ؟ والليل ثقيل الوجه تسبقه أنفاسه السوداء . تقف الحمامة تحت سقف رصيف الباشا عند حافة أحدى العوارض العاليه وراءها من بعيد . مازال صياد الحمام حاد النظر . ألم يقتل الثعبان منذ قليل . ضوء الفسق ما يزال يساعده . تقفز من فوق الرصيف . عيناه معلقتان بها وقدماه تقفزان فوق القضبان ولا تخطئان . يذكر صياد الحمام أن ذلك لم يحدث له من قبل غير مرة واحده . لم تقف الحمامه فوق صدره كما فعلت هذه . لم تسقطه فوق الارض . أتبعته كثيرا وهي تطير بين الارصفه . دعمل اللعبة معها تحديا . قال له « لاتتحرك . أمسك الخلاء وانتظرني سأحضرها حية . لن تكون لغيرك » . يكاد يتعثر . ماذا قال الشرطي اللعين أول مرة . لم يقف . حمل الخلاء وجرى خلفه يكاد يسقط بها . كان يريد الحمامة . ينسى صياد الحمام من علمه الصيد ومن سألوه السؤال الخير . الصوره الجميله للوجه البيض تعود تجري أمامه . هو الذي قال « أنت كبير تصطاد الحمام وأنا صغير أصطاد العصافير » هو الذي تابعه حاملا الخلاء الكاكي صغيرا بثيابه

البيضاء فوق أرض سوداء . كان صياد الحمام يطارد الحمامه وقلبه مضطرب عليه أن يتعثر خلفه . لم يحب لثيابه البيضاء أن تتسخ ، ولا لوجهه البريء أن يجرح .

ما يكاد يقترب قليلا من الرصيف حتى تطير الحمامه سابحة تحت السقف . يصعد الرصيف بصعوبه . يقف يتابعها . يقرر أن ينتظرها . يعرف أنها ستعود . لقد دخلت اللعبه فيما يبدو عارفة بأصولها . لكن الوجه الجميل خلل نور الصباح يطير مع الحمامه ناظرا اليه ! .

○ ○ ○

ـــ قلت لا تأخذه

ـــ .....

ـــ قلت لن يصطاد . صحته لا تحتمل البرد أو الحر .

ـــ .....

ـــ صار يكره المدرسه .

ولا يرد . لايقدر على تركه . يأخذه عنوة والطفل فرحان . تسقط الحمامه فيحسني أن لايكون السقوط بعيدا حتى لايرمق الطفل بالجرى خلفها . لكن كثيرا ما تسقط الحمامه على رصيف غير الذي أصابها فوقه فيسبقه ويقفز بلا خوف فوق القضبان ، ويجرى عائداً بها ضاحكا ولا يشكر . يقول إنه يريد حمامة حمه تبيض في البيت وتفقس . يقول هو « أنت تريد أثنين إذن . » يقول « تكفي واحدة » . يضحك صياد الحمام ولا يفكر أن يشتري له حمامة حية . لماذا وهو صياد ؟

○ ○ ○

يسمع صوت اصطفاق جناحي الحمامة قريبا وهي تمر فوقه كأنها طائرة ! .

يفيق . يستدير . يتابعها بعينيه . يجري من جديد . الصوره البهه للطفل تجري أمامه خلف الجامه التي تتنقل مرة أخرى الى الرصيف التالي . يقف منقطع الانفاس . الشرطي الذين يحفظ رقم القطار ويمضي . لماذا لم يجرو أحد غير الشرطي بذلك . ؟

قمر التي جاءت إلى المنطقه يوم جاء ا . هند والعجوز ؟ . لماذا لم يسألهم هو . ؟

فكر في ذلك أكثر من مره وهو فوق السرير جوار زوجته التي صارت تغطي وجهها دائما ، لكنه لم يسأل . هم الذين سألوه سؤالا رخيصا عما إذا كان قد احصى حصاد الايام . ؟
وكان هو الذي يحصي . اليوم عشر . اليوم عشرين . اليوم صيد وفير . اليوم بيع رابح .ولم يظفر يوما بسماعة حية ذكرا أو أنثى .

يقفز من فوق الرصيف في صياح . يجري غير عابيء بأنه قد يقع الآن . لقد زحف الليل وانقشع آخر ضوء للغسق . إن لم يساعده نور الارصفه المريض سيساعده صوت رفيف جناحيها . سيقتلها طائرة . تطير الجامه تحت الرصيف ليصعد خلفها . تتقطع صورة الطفل الجميل . يشعر بها صارت عقله . يكاد ينفجر في الجامعين .

دائما كان يخشى عليه الغرق والسقوط . يقف مشدودا الى أرض الرصيف الصلده . الجامه تقف قريبة منه أسفل السقف ولا يزال قادرا على رؤيتها كتله غامقه مكومه وسمع أنفاسها هديلا . « لابد أن يقتل أحدنا الآخر » يقول ويسمعها تقول . تضحك وتضع عينيها ماكرتين . منقارها الصغير يطول حتى يكاد يخفأ له عين . يصوب البندقيه ويطلق حبه الرش . فيسمع صوت

طارت عائدة خلفه ومن فوق رأسه . لقد عرفت اليمامه الموت الآن ولن تتركه يقتلها . باللصياد الظالم . يا للصياد النمس . لكنه يضع حبه الرش الأخرى .

آه . بعد خمس ستوات يطلق الرش في الهواء . لكنه لم يخب حين قتل النمسان . يمس بجسمه يشعل . يلتاع غطاء الرأس والوجه يلقي به فوق الأرض بغيظ . يمد يده بعيدا يلمس اليد الطريه للطفل الجميل . ينظر فلا يراه . تتحرك الدموع تحت الأجفان . يعرف صياد اليمام الآن أن الدموع تختلف وتختلف البكاء . لكنه يبكي لأول مرة بحق . كيف لم يبك ذلك اليوم اللعين ؟ .

○ ○ ○

ـــ ماذا ستفعل اليوم ؟

كانت تبكي وهو خارج للصيد فلم يرد .

ـــ من يلقن الولد ؟

صارت تضرب صدرها بكفيها لم تلطمت صدغيها كثيرا . لكنه خرج . اليوم بارد مثل السابق مشى كثيرا بين القضبان وفوق الأرصفه . قطارات كثيرة كانت تقف خلفها عربات مسطحة عليها تحمل دبابات وعربات مصفحة ومدافع تأتي من كل أبواب المنطقه . الجنود الذين يصحبونها يضحكون ويغنون . العمال الصعايده يحوطهم . أنتهت الحرب منذ أسابيع لكن العتاد العسكري القادم من الميناء لم ينقطع . وكان هو قد حدث الطفل كثيرا عن أيام الحرب عن الحرب ، وانقطع الحديث . يتذكر قوله « هل كل من يكبر يحارب ؟ » ورده « كل من يحارب يكبر » وسؤاله « هل حاربت يا أبي ؟ » وكيف قال لا .

لم يصطد شيئا ذلك اليوم . وها هو يتذكر . ظل أياما يمشي بين القضبان والأرصفة ناظرا الى الأرض متقيا من شيء لا يراه . يرى الجنود والعتاد ويسمع الناس تحدث عن الانتصار هذه المرة . ثم عاد يصطاد أكثر من ذي قبل ثم انقطع الحمام . لم يعد يسمع من يحصي الحمام ولا زوجته التي كانت تسأل « كم بعت اليوم » ؟ فيسبقه القلام قائلا العدد ومقدما الثمن . في كل يوم كان يقول له « اضربها في طرف رجلها فلا تموت » ويبدو صياد الحمام فاشلا ، يضرب فتخط الى الجسد أو الرأس . يقول له « يا بني لا أستطيع أن أصطاد لك بمامة حية » ولم يشأ أن يحدثه عن الظلم كيف يكون . ولا عن الحياة وكيف أنها شيء غير مضمون . كان يعرف أنه كلما أصطاد بمامة ، تمنى بعمق أن تعيش فتخونه ويذبحها هو — الصياد — فيخون الجميع .

○ ○ ○

كانت الحمامة قد طارت وعبرت الأرصفة مرة أخرى في الاتجاه المعاكس ورفع رفيف جناحيها كالطبل . إنها تطوي المنطقة هذه الحمامة الصغيرة اللعينة . لم يستطع إلا أن يتابعها بأذنيه حزينا . يصوب بندقيته في الفضاء وراء الصوت ويطلق حيث الرش التي لا يعرف أين أستقرت .

يعود والألم البشع الحاد كالسكين يتلوى في مثانته ؛ فيدخل القرب عربة للرصيف الذي لا يعرف أسمه الآن . العربة مظلمة إلا من مستطيل مائل يعرض الباب المفتوح ينسكب فوقه ضوء المصابيح الواهن . يغلق باب العربة الحديدي الثقيل مقاوما الالم . يتجه إلى ركن في سباق مع اندفاع البول . لقد صارت العربة مظلمة تماما لكنه يعرف من صدى وقع قدميه طول العربة وعرضها وأين جدرانها . كلما اقترب من الجانب ضعف الصوت والصدى . هذه حاسه لا يملكها إلا صياد أو لص . يغلق ازرار البنطلون بسرعة . لقد اغلق باب العربة لا

يدري لماذا . آه . أراد الابتعاد عن كل ربح . لن يعرض مثاثه للبيع مرة اخرى . لن يترك البول يندفع . سيقطره قطرة قطرة ويشعر بالنار تشتعل في مجراه . لن يتخلى عن عادته . في المنعطف يطلقه فيندفع في قوس قوي له صوت حين يرتطم بأرض العربة الخشبية وصدى ، ويطير رذاذه مرتدا الى حذائيه . يريد سكبها بطيئة محماة من نار ازليه في يد قاتل بليد . يشتاق للالم المضني والممتع . وها هو يوسع مابين ساقيه بادئا طقسه الاحمق مثل كل شيء وتتسع به العربه المظلمة . تنبثق فيها شمس تملأها بالنور .

ينهي مرهقا فيتراجع الى ركن أخر ، ولا يدري أنه صار يجلس شيخا فشيخا حتى لامست مؤخرته أرض العربه الرطبه . وإنه يفرد ساقيه على إتساعهما ويفتح صدره يريد هواء أكثر برودة وارطب . يضع البندقية نائمة جوارة . لقد سقطت الفلاة منه وهو يلهث وراء الجامة . يتنسم . هل يرى أحد اجتسامه الآن ؟ .

يتساءل هل مضت الأيام حقا ؟ الشرطي اللعين قال أكثر من سبع سنوات . وهو — صياد اليمام — يصدق أنه لم يصطد يمامة منذ خمس سنوات .

اصطاد بعد الحادثه ثم انقطع الصيد . ما فائدة صيد لم يحصه ؟ . لكنه باع وقبض الثمن ؟ اذن هي خمس سنوات . يتنسم . يفكر في عدد أكثر ثباتا . كم مضى من السنين منذ جاء الى الاسكندرية ؟ . خمس عشرة ؟ ست عشرة ؟ . ذلك أيضا لم يعد ثابتا . هل جاء حقا الى الاسكندرية .. المدينه التي لها أسم فريد ، لحروفه جرس جميل منفرد ؟ . كيف ولم يتزل بحرها ؟ . يحاول أن يعرف متى أدرك ذلك أو أحس به . يفتش في العربه المتسعه بالنور الغريب عن ماض كان رابضا على صدره وأمام عينيه . لا يذكر إلا أنه عرف في جنوب المدينة فريدة الاسم أربعة فيدتهم الأرض . أحبهم لكنهم عذبوه في يوم أراده حاسما . وامرأة انكسرت في عينيها جسارة المدن . ظنها بلسما وكره أن تكون البلسم . ولم يدرك

إلا الآن أنها جرح شقه هو ، وحاولت علاجه بقوة لا تملكها حتى الملائكة . لماذا فعلت ذلك المرأة الطيبة ؟؟ أي طهر دنسه . مسكين صياد الحمام لا يعرف القوة الخرافية التي جعلت منه جرحا لزوجته . فهو الذي جعل الأفق الشمالي يغني ويطوي الثلاثة الذين عرفهم في البار . ألم يعدهم ؟ . كان عليه أن يظل صامتا . حتى الذي وضعه في أرض هي في الحقيقة معلقة في الفضاء ، ما لبث أن هجر البر والبحر وقال طلاسم . يحاول صياد الحمام أن يتذكر اسم زميله فلا يناله . لقد زامله في العمل قبل الصيد وسمع اسمه يتردد كل يوم ! . وزميله نفسه لم يذكر اسمه في خطاب من خطاباته . يا للعبة الكريهة . تماما كما لم يعرف — صياد الحمام — أسمي العجوز والشرطي . لم يفكر أن يسألهما وكان يراهما كل يوم . فلماذا ينتظر أن يذكر له زميله اسمه . من أبطال هذه اللعبة . الرجال الذين لم يعرف اسماءهم أم النساء اللاتي لم ينس اسمائهن ؟ . لكنه لا يتذكر اسم زوجته . حقا لا يتذكر اسم زوجته .

يزداد الضوء يكاد يحرق العينين ولا يرى إلا ضوءه . ترتخي ذراعاه جانبيه . يميل رأسه على صدره . لا تريدين يا زوجتي الوديعة للطفل الآخر أن يتعلم الصيد . أنني لم أعلم الأول لو تعرفين . كم أنت حلم غريب .

يقرر أن ينهض ويخرج من الكوخ باب عائما إلى زوجته أسبق من الهواء والضوء ، باكيا بين يديها ، مقبلا خديها المثلجين ، مهدهدا روحها ، ساكبا على صدرها بحار حنان سحريه ، خارجا من ليله الثقيل ، معيدا لعينيها حواريهما ، ولوجهها نضارته ، وشعرها بهاءه ، جالسا معها فوق سطح يغازلان النجوم ، ويمدان بايديهما السحب من تحت القمر ومن فوق سنبله ، واصلا أيامه بأيام كان يحلم أن يراها . لكنه يشعر بحاجة الى أن يتمدد أكثر ، ويشرب من الضوء الذي يملأ الغرفة .

بطيئا بطيئا يتصلد شاخصا بعينيه في الفراغ الواسع . تتسلل يداه الى جسمه قوة غارمه ويحدد بصره . لا يرى إلا لمايا بيضاء تختلط بثياب سوداء تختلط بدم وتتعثر وسط ريح تأتي من كل الأركان ، وتصنع في تعاريجها أشكالا مفزعه لطيور ذات أجنحه من شعر ، وحيوانات ذات مخالب ، ورجال بوجوه أطفال ، وأطفال عجزة ، ونساء تلتصق ظهورهن بظهور الرجال ويمشون ككائن واحد معذب يلوح — بأيديه الأربعه المتقسمة في الناحيتين برغبة أزليه أن تلمس بعضها بعضا وتقهر . وهو — صياد اليمام — يحاول أن يحاور الكائن الخرافي فيفشل ، ولايعرف كيف يأتيه . ثم يتحول ذلك كله الى أعداد وأعداد غير مفهومه ، ومايلبث المشهد المفزع أن يختفي .

يقرر أن يقص رؤياه على زوجته . يسألها أسمها بشجاعه ، ثم يصحبها الى شاطيء المكس القريب لأول مرة بعد أن انقطع عنه ، ويريان الرجال والنساء والأطفال يسبحون مع الخيل والحمير ، ويتابعان أسراب الغوص . وبعد أن يرحل الجميع يتابعان ضوء الفنار وهو يكشف من بعيد قوس ماء سحري الضوء تقفز فوقه الاسماك التي كانت تالمه بيضاء مندهشه فرحة متلألئه ، ويعودان يمكثان للجوار حكاية حلك الليل الذي أهاجه ضوء الساحل ، فلا يصدقهما أحد ، ولاينقطعان عن الحديث .

يتمنى صياد اليمام أن يفعل ذلك حقا ، ولا يبالي بتراجع القوه التي كانت قد تسللت اليه بنفس الهدوء الخادع الذي أقبلت به ، وأن العربه مبهره الضوء صارت شيئا فشيئا تظلم مع تراجع قوته حتى أنها صارت الآن باردة باردة .

التيت

١٩٨١

مصدر المؤلف

• في الصيف السابع والسبعين	رواية	دار الثقافة الجديدة القاهرة	١٩٧٩
• ليلة العشق والدم	رواية	مطبوعات القاهرة	١٩٨٢
• مشاهد مضيئة حول سور كبير	مجموعة قصص	وزارة الثقافة	سوريا ١٩٨٢
• المسافات	رواية	دار المستقبل العربي القاهرة	١٩٨٣
• تحت الطبع			
• الشجرة والعصافير	مجموعة قصص		
• بيت الياسمين	رواية		

« كان بعاجة إلى أن يشرب من هواء حلب . يمشي تحت الشمس عارية . يخرج الدواء من جسمه . يحصر فيه بناء وهو الإنسان . يظهر عريه بعضوه الذكر . ولو كان يستطيع العيش تحت ماء البحر لفعل . فالأعضاء التي تتركب من الصنايع البيضاء فوق الزوج الأسود بالليل ، وتعكس بيئة كخيوط الذهب ، لابد تجعل الحياة تحت الماء ملونة بالفرح ، والغواء الذي القادم من البحر لابد أنقاس قوم طيبون ، وأسفل الماء أن يبحث عن أمه . سيدلونه عليها إن كانت هناك ، أو يعيدونه إلى الشاطئ، ويقولون كيف يعيشها بسلام . لم يكن سهلا أن يمشي ولكن كان عليه أن يفعل »

هذا هو صياد الإلهام الذي وصل الإسكندرية في زمن الحزن فيه يساوي حائر ويساوي مطروق وبينهما طوابير كثيرة خالية . إنها قصة البحث الفني . والكاتب الذي عرفناه « هيثما » في « ليلة الصفق والدم » و « المسافات » يعود هنا متأملا كأنما يلتقط خيط الإيحاء . إن « الصياد والإلهام » عميقة الصلة بالروايتين السابقتين . تدور أيضا في الإسكندرية التي لا يعرفها أحد ، وتتساءل عليها من السؤال الكبير . كيف غير السيد قطاباً بعروجها ولا نراها ...

دار المستقبل العربي
١٨ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة